كائن اللغة

مقاربة في البعد الزمني

علي الفرج

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

كائن اللغة

مقاربة في البعد الزمني

علـــي الفـــرج

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤسسة

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

اسم الكتاب: كائن اللغة.. مقاربة في البعد الزمني

تأليف: علي الفرج

الطبعة الأولى ٢٠ / جمادى الثانية / ١٤٢١ هـ.ق

لبنان / بيروت / الغبيري ص ـ ب ٢٥/٢٧٨

Omalqora@mail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة
لسان العرب
www.lisanarb.com

بمثابة مقدمة

كـــان الناس فيما مضى يجعلون لأنفسهم سمعة، وهـــذا لـــن يكفي في الوقت الحاضر وقد صارت السوق شاسعة جداً، ينبغي أن يكون ذلك ضجيجا. والنـــتيجة هي أن حناجر جميلة تزعق هي كذلك، وأفضـــل السلع تعرض بأصوات مبحوحة، فبدون صـــراخ السوق لن يعترف بأية عبقرية منذ الآن. بئس هذا العهد بالنسبة للمفكر.

نيتشه. كتاب العلم المرح ١٩٢

اللغة في ركام المفاهيم

مفهوم اللغة في التراث العربي

نورد أدناه بعض التعريفات للّغة، لا على أســـاس استقرائي تامّ، وإنّما على أساس فرز عيّنة نموذجية أسهمت بها شخصيّات تُصنَّف ضمن طليعة اللغويين، وهي كالتالي :

١ ـ ابـــن جـــنّي: أصوات يُعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم. (الخصائص ١/٣٣).

٢ ـ ابن سنان الخفاجي: ما يتواضع القوم عليه من الكلام. (سرّ الفصاحة ١/٣٣).

٣ ـ ابن الحاجب: كلّ لفظٍ وضع لمعنى. (المزهر١/٨).

٤ ـ ابن خلدون: عبارة المتكلّم عن مقصوده، والعبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام.

والقراءة الجَمْعيّة ـ لا المقارِنة ـ لهذه التعريفات الأربعة تنتج لنا أنّ اللغة تتركب من ثلاثة أمور :

ـ الشفاهية (كلام / صوت / لفظ / عبارة).

ـ المواضعة .

ـ النفعية (الغرض / المقصود).

أمّا ما يتّصل **بالشفاهية** فهو مستمدّ من قاموسية الكلمة، فمادة (ل غ و) تدلّ في بعض استعمالاتها على التكلّم / الشفاهية .

وأمّا **المواضعة** فهو مستمد من الذاكرة الخلافية التي تعيش الجدل القائم آنذاك : هل اللغة توقيفية أم هي بالمواضعة ؟ وبالتالي أُسقطت هذه الخصوصية بين شقوق التعريف اختياراً لرأي، وتعريضاً بآخر .

وأمّا **النفعية** فهي خاصّية مستبطنة في داخل اللغة، لا يمكن أن تنفكّ عنها؛ لأنّنا لا نتصورّ تصويتاً لا لشيءٍ إلا في الحالات اللاواعية المستثناة من دائرة البحث .

وما يمكن أن يطرح كملاحظة في هذا الصدد أن براغماتية اللغة لا تنحصر في الحكائية والتعبير عن الغرض ـ حسب ابن جني ـ أو التعبير عن المقصود ـ حسب ابن خلدون ـ، بل يمكننا أن نجد أنماطاً من الإحداثات اللغوية لغير ذلك، كعملية تجريب الصوت وعملية الاستذكار والتلقين، وفي بعض الطقوس

العـــبادية، فهي وإن لم تكن حالة حكائية إلا أنّها لا تخرج عن النفعية، بمفهومها الواسع الذي سقنا الملاحظة لتكريسه.

وأكـــثر من ذلك حينما يفاجئنا الشيخ **عبدالله العلايلي** بحدّة الطرح في رأيه: أنّ الحالة الحكائية للّغة **ملحظُ حـــــقّ وصحيح حيـــنما نـــتّجه بنظرنا إلى اللغة في دورها النشوئي، أمّا هي بعده فمجموعة من الأفكار والتقاليد والعواطف والأحاسيس والتروات وشـــتّى المشاعر والاعتبارات، تنظّمها الألفاظ انتظاماً أصبح منها كمـــا يكون الشيء من الطبيعة.** (مقدّمة لدرس لغة العرب ٤٣). فهي تحمل في باطنها طاقات العاطفة، وقد تجاوزت مرحلة التعبير عـــن العاطفة، كما أنّها كتلة من الإحساس وليست كتلة دوالّ تشير إلى الإحساس.

وإذا قرأنا التعريفات الأربعة السابقة قراءةً مقارَنة نجد أنّ الأمر الـــذي يلفت الانتباه تركيز ابن جنّي على جماعية اللغـــة بقوله: **يعـــبّر بها كلّ قوم**، وكذلك الخفاجي بقوله: **يتواضع القوم عليه**، بينما نرى ابن خلدون يكرّس في تعريفه سمة فردية بقوله: **عـــبارة المتكلّم**، ولا شكّ أنّ المتكلّم/المرسل يستدعي ــ بمجرّد افتراضه ــ ســـامعاً/متـــلقياً، ولكـــن هل يكفي ذلك للدلالة على جماعية اللغة؟!

وأمّا تعريف ابن الحاجب فحيادي من هذه الناحية، ومن هنا يَبْرُز ابن جني والخفاجي بميزة في فهم النسق اللغوي العام.

ونعـــترف بعد ذلك بتميّز تعريف ابن جنّي حينما عبّر عن خصوصية الشفاهية بقوله: (أصوات)، فالخصوصية الصوتية لا تســـتبطن أكـــثر من الشفاهية، بينما التعبير بالكلام أو اللفظ أو العـــبارة يحتمل ما هو أكثر من الشفاهية، الأمر الذي يعكس لنا جلاء الخصوصيات والملامح التكنيكية للماهية اللغوية في تفكير ابن جني.

مفهوم اللغة في الدرس الحديث

١ ـ إدوارد ســـابير: اللغة وسيلة لا غريزية خاصّة بالإنسان، يستعملها لاتصال الأفكار والمشاعر والرغبات، عبر رموزٍ يؤدّيها بصورة اختيارية قصدية.

ويضـــع أمامـــنا هذا التعريف عدّة حقائق، تدخل في النسيج المفهومي للّغة، هي:

ـ اللغة نشاط مكتسب وليس غريزيّاً.

ـ اللغة خاصّة إنسانية.

ـ اللغة وسيلة اتصال.

ـ اللغة رموز.

ـ اللغة أصوات اختيارية .

ويتّضح مقصوده بالتعبير **وسيلة لا غريزية** إذا قسّمنا النشاط الإنساني إلى قسمين: **أوّلهما** النشاط الغريزي؛ وهو التلقائي الذي لا يحتاج إلى تعلّم، كالتنفّس والمشي، **وثانيهما** النشاط غير الغريزي؛ وهو ما يحتاج إلى عوامل خارجة عن الإنسان في تلقيه، كالكلام، فلو أنّنا ألغينا المجتمع وأبقينا الإنسان وحيداً في أحضان الطبيعة، فإنّه سيمشي لا محالة عند بلوغه السن المناسبة، ولكنّه لن يتكلّم.

٢ ـ بلوخ وترايجر: اللغة تنظيم رموز صوتية كيفية، يتعاون بواسطتها أفراد مجتمع معيّن.

وهذا التعريف يتضمّن خاصّيتين مهمّتين لم تذكرا في التعريف السابق :

ـ اللغة تنظيم : أي كلٌّ منظّم يعمل كمجموعة، بحيث لو أخذ أي رمز على حدة لم يكن له القيمة المطلوبة منه

ـ اللّغة رموز كيفية : أي أنّ دلالة الرموز غير معلّلة، فلا تخضع لأي قياس عقلي، بل هي تنبع من اصطلاح جماعي اعتباطي كيفي .

٣ ـ ديسوسير: اللغة عبارة عن تنظيم محدّد في كتلة من العناصر المتغايرة، التي يمكن وصفها في جزء محدّد من الدائرة

الكلامية، عندما تجتمع الصورة السمعية مع الفكرة.

والإضافة الجديدة في هذا التعريف تتمثّل في أمرين :

ـ اللغة نظام تخالفي (كتلة من العناصر المتغايرة) .

ـ اللغة يمكن وصفها من الكلام .

أمّـــا مـــا يتّصل بالأمر الأوّل فهو مستمد من نظريته ـ أي ديسوسير ـــ المعروفة عن المتضادّات الثنائية **binaryoppositions** إذ أنّ الكلمة الموجودة في السياق اللغوي تتحدّد دلالتها ـ عنده ـ من الكلمات المضادّة أو المقابلة لها، فالمتلقي عندما يسمع كلمة **أبيض** يفهمها بمعونة المخزون اللغوي من كلمة **أسود**، وهكذا فيكون النصّ اللغوي وثيقة من المتقابلات الثنائية (المرايا المحدّبة ٢٠٩).

وأمّـــا الأمـــر الثاني فهو قائم على (الثالوث) الخاصّ الذي اصـــطنعه دي سوسير، وضمّنه تصوّرات لثلاثة مفاهيم ـ انطلق من خلالها لصنع منهج خاص في دراسة اللغة ـ هي :

اللغة: ويقصد به اللغة في أوسع معانيها؛ أي اللغة باعتبارها ظاهرة إنسانية تميّز الإنسان عن بقية الموجودات .

اللسان ـ اللغة الخاصّة ـ : وهي مجموعة الأنظمة التي توحّد مجتمعاً لغوياً، كقولنا: اللغة العربية أو اللغة الفرنسية، ويفترض في هـــذه الأنظمـــة صـــفة التجريد، إذ لا تشخّص لها إلا في باطن

الممارسات الكلامية .

الكـــلام: وهو النشاط الفردي الشفاهي المتمثّل في استخدام الفرد للأنظمة اللغوية. (سوسيولوجيا اللغة ١٤/١٣).

وبعد معرفة هذا الثالوث الاصطلاحي ندرك البعد المقصود من تعـــبير دي سوسير: **اللغة يمكن وصفها في جزء محدّد من الدائرة الكلاميـــة**، فهو يعمّق الثنائية المتقابلة بين اللغة الخاصّة والكلام، حيث اعتبر عملية استكشاف الأنظمة الدلالية والنحوية تتمّ عبر ملاحظة العيّنات الكلامية .

٤ ـ تشومســـكي: الـــلغة مجموعة متناهية أو غير متناهية من الجمـــل، مكوّنة من مجموعات متناهية من العناصر . . يكتسبها الإنسان بمقدرة فطرية .

وتعريف تشومسكي للّغة ليس إضافة على ما سبق فحسب، وإنّمـــا هو تأسيس لرؤية جديدة تعبّر عن منهج مغاير في البحث اللغوي، ويتضمّن هذا التعريف مجموعة من الحقائق :

ـ اللغة عناصر متناهية تولّد جملاً لا متناهية .

ـ الجملة، وليس المفرد هو محور النشاط اللغوي الإنساني .

ـ الإنسان يمتلك قدرة فطرية، تمكّنه من الأداء اللغوي .

والحقيقة الأولى تُعدّ اكتشافاً لخلاّقية اللغة، التي لم يُلتفت إليها

من قبل، وأمّا الحقيقة الثانية فتعدّ بذرة لمنهج لغوي تحليلي، عُرف باسم **النحو التوليدي التحويلي**، كما أنّ الحقيقة الثالثة نقلت الكرة من ملعب (الشكل اللغوي) المنفصل عن الإنسان إلى ملعب العقل الإنساني، وهو منحًى خطير في الدراسة اللغوية.

بعد هذه الجولة في ركام المفاهيم والحدود فلنقارن، ولو بصريًّا، بين المعطيات التحديديّة الموروثة، ومعطيات الدرس الحديث عبر الجدول الآتي:

التعريفات التراثية	*التعريفات الحديثة*
اللغة أصوات شفاهية	اللغة نظام نحوي وصوتي ودلالي.
اللغة اصطلاح ومواضعة	اللغة نظام تخالفي.
اللغة نفعية	اللغة رموز.
اللغة نشاط جماعي	اللغة اعتباطية / كيفيّة.
اللغة أصوات إنسانية إرادية	وظيفة اللغة الاتصال.
	اللغة لا متناهية الجمل.
	عناصر اللغة متناهية.
	اللغة تنبع من مقدرة فطرية.
	اللغة خاصّية إنسانية.
	اللغة توصف من الكلام.

اللغة في ركام المصاديق

مـــن المفروغ عنه أنّ اللغة أبرز الطقوس (العلامية) في حياة الإنسان، إذ لا يكاد يخلو يوم من أيّام الإنسان السوي من دون ممارسة لغوية، وهذه الحالة العلامية/السيميولوجية تعدّ جزءً من كـــمٍّ هائل من النشاطات السيميولوجية، فلذا نتساءل أين تقع اللغة في خارطة هذا الكم الهائل ؟.

هنا سنطرح نظريّتين متباعدتين نشوءً ومتوافقتين هدفاً، حيث تحـــاول كلّ منهما استيعاب الأنظمة العلامية، هما: نظرية المنطق الأرسطي، ونظرية بيرس.

نظرية المنطق الأرسطي

قـــبل بيان هذه النظرية أود الإشارة إلى عدم اعتناء علم اللغة الحديـــث بها، رغم ما تحمل من رؤية سيميائية شمولية واضحة، خصوصـــاً مع مقارنتها ببعض النظريات الحديثة، المتقدّمة منها

فضـــلاً عن القاصرة، وملخّص هذه النظرية هو: أنّ (الدلالة) تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

● الدلالـــة العقلية:وهي فيما إذا كان بين الدال والمدلول ملازمـــة ذاتية في وجودها الخارجي؛ كالأثر والمؤثّر، فإذا علم الإنسان أنّ ضوء الصباح أثرٌ لطلوع الشمس، ورأى الضـــوء عـــلى الجدار، سينتقل ذهنه بالضرورة إلى طلوع الشمس.

● الدلالة الطّبْعية:وهي فيما إذا كانت الملازمة بين شيئين يقتضـــيها الطـــبع الإنساني، وهذه الملازمة قد تختلف أو تتخـــلّف، حسب طباع الناس أو الظروف المحيطة، ومثالها دلالة التأوّه على التوجّع، أو الارتباك على الخجل.

● الدلالة الوضعية:وهي فيما إذا كانت الملازمة بين شيئن ناشـــئة مـــن التواضـــع والاصطلاح الاجتماعي، كدلالة الإشارات المرورية على نظم السير، وكدلالة الكتابة على الألفاظ. (منطق المظفّر ١/٣٧).

وبـــلا تـــردّد نجعل اللغة في دلالتها من القسم الثالث؛ لأنّ علاميّتها مستمدّة من الوضع البشري، وليست من صميم الخارج ولا من الطبع الإنساني.

نقد النظرية الأرسطية:

لكلّ قسمة أساس يكون هو الملحوظ حين القسمة، والتقسيم السابق تشكّل على أساس **ظرف الملازمة**؛ فإن كان ظرفها الخارج، وليس دور العقل الإنساني إلا الإدراك والاكتشاف، كانت الدلالة عقلية، وإن كان ظرفها طبع الإنسان، كانت الدلالة طبعية، وإن كان ظرفها الاعتبار أو الافتراض، كانت الدلالة وضعية؛ لأنّ الذي سبّبها هو الوضع البشري.

ومن هنا نعرف أنّ القسمة ـ هنا ـ استقرائية وليست حصراً عقلياً، فانتفاء القسمين الأوّلين لا يقتضي ـ عقلاً ـ ثبوت الثالث؛ لأنّه من الممكن تشكّل ملازمة في وعاء غير ما ذكر، ومن هذا المنطلق قد يؤاخذ عليها عدم الاستيعاب، فهناك من النماذج العلامية ما لا يدخل في أي قسم من الأقسام الثلاثة؛ كصورة الأسد المرسومة الدّالة على ذات الأسد، فليست الدلالة عقلية؛ لأنّها ليست من سنخ الدلالات القائمة بين الأثر والمؤثّر، وليست طبْعية؛ لأنّها لا يقتضيها الطبع الإنساني وتكوينه، وليست دلالة وضعية ـ بحدِّيَّة المصطلح ـ؛ لأنّها وإن كانت الصورة من تكوين الإنسان إلا أنّ دلالتها ليست داخلة في إطار اختياره، كإشارات المرور التي لو ألغيت في المجتمع لم تكن لها أية

دلالة .

ولـــذا يمكن أن نضيف قسماً رابعاً، وهو **الدلالة الذاتية** أي الدلالة التي يقتضيها ذات الدالّ وطبعه، لا الطبع الإنساني .

نظرية بيرس:

وهـــي أشـــهر الـــنظريات التي طرحت لاستيعاب الأنظمة السيميائية، بادئة بالمماثلة ومنتهية بالمغايرة، وفق تراتب ثلاثي :

الايقونـــة icon: وهـــي العلامة التي تدخل في حيّز المماثلة والمـــوازاة مع الخارج، وتظهر نفس خصائص المشار إليه، فهي تـــتحدّد بموضـــوعها وديناميّـــتها الخاصّة؛ كالتماثيل المنحوتة والرســـومات والصـــور الفوتوغرافية، وبعض علامات الكتابة التصويرية القديمة كالهيروغليفيّة عند المصريين الفراعنة .

المؤشّر index: وهي العلامـــة التي نشأت لمجاورتها لموضوعها الخارجي، فقد يكون ارتفاع الصوت مؤشرا على حالة الهيجان عـــند المتكلّم، كما يكون الدخّان مؤشّراً على وجود النار، مع الفارق بين المثالين في كيفيّة نشوء التجاور.

الرمـــز symbol: وهـــو أكثر المستويات تجريدا عن الواقع الخارجي، إذ هو العلامة التي نشأت من علاقه تعارفية، وغالباً ما تقترن بالأفكار العامّة التي تدفع الناس إلى ربط الرمز بالموضوع .

ومـــن المـــلحوظ في هذه النظرية أنّها قامت على درجات القـــرب والبعد بين العلامة والموضوع، ولذا يمكننا تمثيلها بصرياً كالتالي :

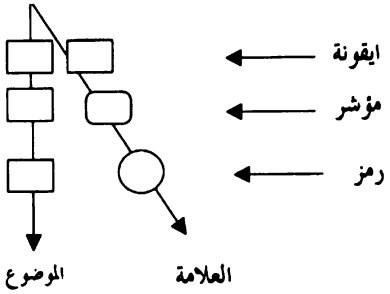

والعلامـــات اللغوية لا شكّ أنّها تمثّل أجلى مصاديق الرمز، وأفضـــل العلامات الرمزية تداولا، وأكثرها نجاحا. (اللغة الثانية ١٨ – ١٥).

نقد نظرية بيرس:

لا يمكنـــنا التشـــكيك فيما أعطته هذه النظرية من مرونة في تصـــنيف العلامـــات الســـيميائية المختلفة، ولكن لا ينبغي لها الاستسلام والوقوف عند المسافة التي بين الرمز والموضوع، فهناك مـــا هـــو أكثر تجريدا وأبعد مسافة، وهو ما يسمّى **بالدلالات**

الإيحائيـــة الـــتي تجعـــل الموضوع الخارجي جسراً للوصول إلى موضـــوع أبعـــد، عـــن طريق قانون تداعي المعاني، فإنّ تعبير (غروب الشمس) يوحي بالشيخوخة، ومفردة (الثلج) توحي بالســـكون، وهـــو ما رمى إليه عبدالقاهر الجرجاني في نظريّته (معـــنى المعنى) ، ومن الواضح جدّا ليس غروب الشمس مماثلا للشـــيخوخة، حـــتى يندرج تحت الأيقونة، ولا اقتران بينهما في الذاكـــرة الإجـــتماعية حـــتى يكون من المؤشر، وليس أحدهما موضوعا للدلالة على الآخر بالاصطلاح حتى يدخل في الرمز .

نعـــم . . هـــناك محاولـــة جادّة لأحد الدارسين، يقدّمها اســـتدراكاً مهمّا؛ لتفادي الفهم الساذج والآلي لمفهومي **المؤشّر والأيقونة**.

فالمؤشّر تارة يبتني على التجاور المادي ـ وهو ما أسلفناه ـ وأخرى يبتني على التجاور المستمدّ من نتاج الممارسات الثقافية والاجـــتماعية، (فالثلج) يفضي إلى موضوعه الخارجي ويُحيل عليه بنحوٍ ساذج، ولكنّه يُحيل على (السكون) نتيجة لممارسة اجـــتماعية هـــي ارتباط الثلج بالحدّ من الحركة والانكفاء على الذات .

وأمّـــا الأيقونة فقد تبتني على تكافؤ مادّي ساذج، وقد تبتني

على تكافؤ بنائي مستمد من ذاكرةٍ ثقافية أو اجتماعية، فغروب الشمس لا يحيل على الشيخوخة إلا بعد عملية تجريدية لكلّ من العنصـــرين، واستحصال حالة الانتهاء البطيء في آخر المسافة. (يراجع اللغة الثانية ٢٦).

ونستنتج بعد ذلك، من الجولة في ركام الدوالّ والعلامات، أنّ الـــلغة تعدّ حالة سيميائية من الطراز الأوّل، فهي في المصطلح الأرسطي (دلالات وضعية)، وفي المصطلح البيرسي (رموز) و (مؤشّرات) و (أيقونات)، ولكن بعد ترميم النظرية الثانية، وتطويرها بما ذكرناه.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ولادة اللغة

ملاحظات منهجية عامّة

١ ـ اختلفت المناهج التي على أساسها يُدرس البحث في أصل اللغة، وشروق النظام التواصلي الترميزي في حياة الإنسان، وكان الاختلاف بينها شاسعا، وليس عيبا أن تختلف المناهج للتوصّل للحقائق العلمية ـ إذا لم نعدّه ثراءً علمياً ـ ولكن العيب أن تَعُوم نقطة البحث، ويدخل محور النقاش في ضبابية تعيق الرؤية الموضوعية.

وهنا لا بدّ أن نصرّح أنّ النظريات التي طُرحت لمعالجة اكتشاف أصل اللغة، لم تتموضع بطريقة واضحة للإجابة عن سؤال محدّد، بل الاستقراء الدقيق يفرز لنا أنّ النظريات المؤصَّلة، في هذا الصدد، تأرجحت أجابتها بين ثلاثة أسئلة:

- لماذا استخدم الإنسان اللغة؟
- كيف استخدم الإنسان اللغة؟

● كيف نشأت العُلْقة اللغوية بين اللفظ والمعنى؟

فإذا كان السؤال الأوّل يستفهم عن الدوافع التي ولّدت اللغة عند الإنسان، فالسؤال الثاني يستفهم عن الطرق الإجرائية التي استخدمها الإنسان الأوّل للتوصّل للغة، بينما السؤال الثالث يستفهم عن كيفيّة الارتباط بين اللفظ والمعنى في وعاء الذهن البشري.

٢ ـ انحرف مسار البحث عند كثير من الدارسين من محاولة الكشف عن اللغة ـ بالمصطلح الديسوسيري ـ إلى الكشف عن اللسان، انزلاقاً وراء ما نسمّيه **فتنة اللغة**؛ نقصد بذلك أنّ كلّ ذي لغة تفتنه لغته، إلى حدّ تُعشيه عن غيرها، وما ذاك إلا لأنّ الطبيعة اللغوية ـ على وجه العموم ـ خلاّبة، تخطف ببصر الإنسان، فالإنسان لا يرى العالم إلا من خلالها، وإذا تصفّحنا أوراق الزمن سنرى حوادث ليست عزيزة تشهد بفتنة اللغة، ومن هذه الشواهد:

ـ حاول أحد الفراعنة المسمّى (ابسمتيك) أن يثبت أنّ اللغة المصرية القديمة أقدم اللغات في العالم، فعزل طفلين عزلا تامّا عن الناس، وانتظر شهورا أن ينطقا بكلام، ولكن ظنّه خاب عندما سمعهما ينطقان بلغة أُخرى. (فقه اللغة. قاصد٣١).

ـ تسالم اليونانيون القدامى بأنّ لغتهم اليونانية تبرز الأشكال العامّة للتفكير الإنساني، وأكثر من ذلك ذهبوا إلى أنّها تبرز الأشكال العامّة للنظام الكوني بأسره. (فقه اللغة سعران٧٦).

ـ في القرن السابع عشر اعتقد العلماء السويديون أنّ اللّه يتكلّم السويدية، وآدم (ع) يتكلّم الدينماركية. (عالم الفكر ١٩٧١م ـ م ٢ ـ ع ١).

ـ عقد مؤتمر في تركيا عام ١٩٣٤م، وأثار فيه العلماء الأتراك أنّ اللغة التركية هي أصل اللغات، وقد اشتقّت من لفظ الشمس ـ بلغتهم ـ لأنّها أوّل ما يلفت انتباه الإنسان. (نفس المصدر).

ـ زعم العبرانيون أنّ لغتهم أقدم اللغات، وأنّ اللّه سبحانه علّمها آدم (ع) بعد خلقه إيّاه، وما هذه الدعوى إلا امتداد إلى دعوى أنّهم شعب اللّه المختار. (فقه اللغة العربية: قاصد ٣٣).

ـ قال السريان : إنّ لغة أهل الجنة والحساب في الآخرة هي اللغة السريانية. (اللسان والإنسان ٦٦).

ـ والرومان يسمون كلّ من لا يحسن التفاهم باللاتينيّة بربريّاً ـ أي همجياً ـ ومن الأجناس البشرية السفلى. (نفس المصدر).

ـ يعتقد العرب أنّ لغتهم هي أشرف اللغات، لذلك كانت وحياً وإلهاماً. (دراسات في فقه اللغة ٣٦).

كـــلّ هذه الحوادث تلمح إلى أنّ العالم لا يكتسب إنسانيّته (يتأنْســـن) إلا عبر رؤيته من خلال اللغة، وكلّ صاحب لغة لا يلمس العامل الخارجي بوعيه، إلا من خلال اللغة، وبالتالي يترلق في فتنـــتها، ويضـــغط على مسار البحث ويبرّره لصالح اللسان الخاص.

٣ ـ انساق كثير من المنظّرين لأصل اللغة وراء بريق الاكتشاف، في لحظات لاواعية، ممّا سبب بروز شطحات غير متوقّعة، ويترّفع الـــنقد أنّ يعرضها ويشرحها علمياً في عملية تقويمية، فمن تلك الشطحات:

نظـــرية داروين: التي تفسّر نشأة اللغة تفسيراً آلياً؛ إذ بينما الإنســـان يحـــاول أن يمثّل بفمه الحركات التي تصدر من يده، اكتشف طاقة اللغة الكامنة في الفم.

نظـــرية شـــتورينفانث: التي ترمي إلى أنّ الإنسان لما ابتلي بانفعالات ونوايا، تظهر على تقاسيم وجهه وحركاته ـ وهي لا إرادية ـ حاول أن يداري هذه الانفعالات بوسائل إرادية، فصنع اللغة.(عالم الفكر ـ السابق).

النظرية القائلة أنّ البشرية ظلّت فترة طويلة في صمت مطبق، ولا كلام إلا بالإشارات، وما الكتابة الهيروغليفية الصينية في آسيا

الصغرى، والكتابة السومرية التصويرية في العراق القديم، إلا بقايا من عصور الصمت والتفاهم بالإشارة. (اللسان والإنسان ٢٨). والعجيب في هذه النظرية ادّعاؤها اكتشاف الكتابة قبل اللغة الملفوظة.

مناهج الاكتشاف:

تعدّدت المناهج التي جسّرها المنظّرون لاكتشاف ولادة اللغة، وهذا الثراء المنهجي برز نتيجة للتباين الفكري والثقافي والاجتماعي لأصحاب النظريات؛ إذ كثيراً ما تكون الخلفية الفكرية والاجتماعية محدّدةً لمسار الفهم للظواهر العامّة، ولقد طفا على السطح تباينٌ غير طبيعي في النتائج، وبقراءة استقرائيّة متأنية يمكننا تشخيص المناهج الاستكشافية، وكما يلي:

١ ـ **المنهج الإيديولوجي**: وهو القائم على تحديد النظرية وفق مصادرات أيديولوجية، ومعطيات دينية بعيدة عن التجريب أو البحث الميداني، خارج أفق الإسهام الرؤيوي، وينتمي لهذا المنهج نظرية أحمد ابن فارس، الذي يذهب إلى أنّ اللغة وحي من الله ـ كما اشتهر عنه ـ كما تنتمي له محاولة العبرانيّين للتدليل على أصالة لغتهم بما جاء في سفر التكوين من النصوص. (فقه اللغة العربية ـ قاصد ٣٣).

ونضيف لهذا المنهج نظرية **فريدريك إنجلز والماركسية** التي تصر على أنّ اللغة ولدت من العمل؛ لأنّه مصدر جميع ثروات الإنسان، والإنسان اكتشف يده قبل لسانه وصوته، و لم تلحق هذه النظرية بالمنهج الإيديولوجي، إلا لأنّ انجلز وماركس صاغا الفلسفة الماركسية، والنظريات الاشتراكية، والمادية الجدلية، طموحاً لإقامة إيديولوجية ورؤية شاملة للعالم، وبالتالي برزت فكرة العمل كمفردة مستوحاة من نظرة إيديولوجية . (يراجع فقه اللغة في الكتب العربية ـ عبدة الراجحي ٩٤) و (موسوعة الفلسفة ٤١٥).

وقد طالب مجموعة من الدارسين تنقية البحث من هذا المنهج، إذ يجعل اللغة من مبتدعات السماء، التي ترتفع عن القدرة الدرسية للعقل البشري المحدود، فيعدّ هذا البحث إغلاقا للبحث اللغوي، بينما إبعاده يعدّ إنقاذاً للجهود اللغوية من الضياع والتبخّر .

والإنصاف: لم يكن المنهج الإيديولوجي مؤهّلا لتحميله هذه اللوازم غير اللازمة، فلا مناقضة موضوعية بين أن تكون اللغة من مبتدعات السماء، وقدرة الإنسان على درسها، كما أنّ الأرض وجسم الإنسان والفلك من مبتدعات السماء، وهي أوسع الآفاق

للدراســـات الإنســـانية؛ لما تحمل من أنظمة وعناصر وصفات تستحقّ التحليل والاكتشاف .

٢ ـ المـــنهج التاريخي : وهو الذي يحاول استكشاف نشأة اللغة من معطيات تراثية، قائمة على ما خلّفه الإنسان الأوّل، من نقوش أو آثار إنسانية كتابية أم غير كتابية .

وقـــد لاحـــظ الدارسون أنّ هذا المنهج، في سيره الوراثي، سيصـــل إلى مرحلة مغلقة، لا يعرف ما خلفها، وهي مرحلة ما قـــبل الـــنقوش والآثار، إذ لا دليل على تزامن نشوء اللغة وما سيصلنا من الآثار، الأمر الذي اقنع الكثير بعقم هذا المنهج .

٣ ـ المنهج الاستبطاني : هو المنهج الذي اعتمد على فروضٍ عقـــلية واستبطانية (تأمّلية) بعيدةً عن الميدان التجريبي، وينتمي لهذا المنهج الجهد الفكري الكبير، الذي بذله علماء أصول الفقه تحـــت بحث (الوضع) ، وقد أسهموا في هذا المجال إسهامات لا ينـــبغي إغفالهـــا، حول ماهية الوضع اللغوي، وانقساماته، ونقد النظريات المدخولة فيه، وقد تضخّم البحث التحليلي عندهم إلى حدّ الترهّل.

ولكـــي نـــتعرّف على خارطة الحركة العلمية عندهم، علينا بالشكل البياني التالي :

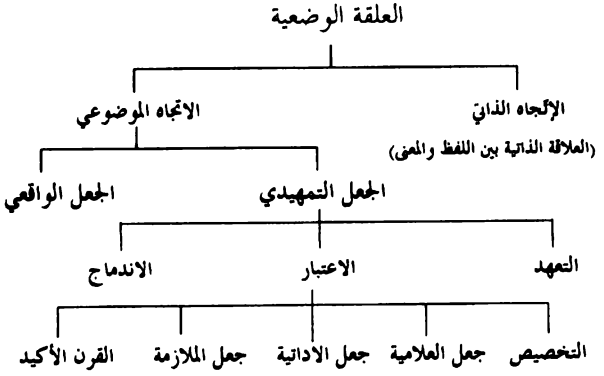

والتساؤل الذي يطرح نفسه: هل يكفي التخمين والحدس في اكتشاف كيفيّة ولادة اللغة ونشوئها؟ !

طـــبعاً لا يكفي، ومن هنا فالأُصوليون لم يحاولوا الإجابة عن السؤال الأول أو الثاني المتقدّمين، بل حاولوا الإجابة عن السؤال الثالث، الذي يستفهم عن طبيعة العلاقة بين اللفظ والمعنى، وليس اكتشاف ذلك بهذا المنهج الاستبطاني عزيزاً.

و لم أرَ مَـــن فرّق بين البحثين (نشأة اللغة والعلقة اللغوية) من الأصوليين، بصورة صريحة، سوى السيد السيستاني ـ حفظه الله ـ في كتاب (الرافد في علم الأصول) حيث قال:

.. البحث في نشأة اللغة، ومتى بدأت، لا نتعرّض له؛ لعدم وصول العلماء في الفلسفة واللغة والأُصول حتّى الآن إلى أدلّة قاطعة وقناعات كافية، وما زال الرأي تخميناً، ولعدم مدخلية أصل البحث في البحوث الأُصولية، لذلك نقتصر على بيان حقيقة الوضع اللغوي في العصر الحاضر.. (الرافد ١٦٢).

وهذه التفاتة نوعية، تجعل الحركة داخل المعالجة العلمية واعية، وقد ذكر في نهاية كلامه ما نصّه:

.. ويمكنه استكشاف كيفيّة بداية العلقة اللغوية وتطوّرها، من خلال تحديد حقيقة الوضع في العصر الحاضر..

وهذا الكلام منه لا يتناسب مع ما ذكره سابقاً؛ لأنّه إن أراد أنّ العلقة الوضعية بين اللفظ والمعنى في عصرنا، على شاكلة العصر القديم للإنسان القديم، فهذا أمر من الوضوح بمكان؛ لأنّ النتيجة المكتشفة تضيء لنا جانبا من الطبيعة الذهنية للإنسان، ولا يشكّ أحدٌ في أنّ الإنسان الأول لا يختلف عنّا في القدرات الذهنية وطبيعة التكنيك الداخلي. وإن أراد أنّ معرفة الحقيقة الوضعية للغة في العصر الحاضر، تكشف لنا عن كيفيّة تكوّن اللغة عند الإنسان الأول، فهذا أمرٌ لا يمكن الوصول إليه من هذا البحث؛ لأنّ معرفة أبعاد العلقة اللغوية في الذهن البشري، لا

يضيف لنا أيّة معلومة عن الطرق الإجرائيّة التي توصّل بها الإنسان الأول لاستيلاد اللغة.

وتنتمي للمنهج الاستبطاني الحدسي أيضاً **نظرية ابن جنّي** القائلة بأنّ اللغة(اصطلاح)، ونظرية محاكاة أصوات الطبيعة، **والنظرية** التي تذهب إلى أنّ اللغة بدأت بأصوات أصدرها الإنسان، معبّرا عن انفعالاته، من حزن أو عصبية أو تعب، **والنظرية** التي تذهب إلى أنّ اللغة بدأت بالمقاطع الطبيعية التي يتفوّه بها الإنسان، عندما يستخدم جسمه في حمل الأثقال أو قطع الأشجار. (المعجم المفصّل ٢/٦٤٩).

٤ ـ **المنهج الوصفي**: وهو المنهج الذي يعتمد على دراسة نشاط لغوي خاص، يمكن من خلاله التنبّؤ بطريق تكوّن اللغة، والنشاطات اللغوية التي خضعت للتشريح والملاحظة تتمثّل فيما يلي:

أ ـ النشاط اللغوي للطفل: فقد تركّزت دراسات كثيرة لمعرفة طرق اكتساب الطفل للغة، و لم تقصد أكثر النظريات التوصّل إلى كيفية نشوء اللغة عند الإنسان الأول، وإنّما استهدفت إضاءة جوانب التطوّر اللغوي لدى الإنسان، ذلك لأنّ دراسة نشاط الطفل اللغوي لا يخرج بنتائج عن الإنسان الأول؛

لأنّ الطفل لا يخلق لغته من عدم، وإنّما يمتلك لغة الوسط المحيط به شيئاً فشيئاً، ولا أثر لذلك عند الإنسان الأول البدائي. (اللسان والإنسان ٢٢).

كما أنّ الرؤية الموضوعية للغة الطفل تكشف عن مساحة واسعة من تقليد الكبار، تفوق ابتكاراته وخلقه للأنماط اللغوية التركيبية والمفرداتية.

وهناك هوّة واسعة لابدّ من ردمها؛ وهي التي بين ملكة الطفل اللغوية ـ كطفل ـ وملكة الإنسان الناضج عقليا وعضويا، فإنّ قوانين النشاط الأول ليس بالضرورة تتقاطع مع قوانين النشاط الثاني.

ب ـ النشاط اللغوي عند المجتمعات البدائية المعاصرة، فإذا كانت المجتمعات لا تزال في طور الوحشية والهمجية أو الفطرية حتى الآن، فهي تمثّل الإنسان الأول بكلّ أبعاده اللغوية والفكرية ـ حسب هذا الاتجاه ـ.

ومن المتوقّع عدم توفيق هذا المنهج لاستكشاف نشأة اللغة، والسبب فيه أنّ المجتمعات البدائية قد تعيش وحشيتها وهمجيّتها على المستوى السياسي والثقافي والتقني، ولكنّ ذلك لا يعني أبدا أنّ لغتهم غير مكتملة النمو، فهي قبائل وعشائر تعيش في

مواطنها، ويتفاهم أفرادها لغوياً منذ مئات وربّما آلاف السنين، وهذا بطبعه ينتج نضجاً لغوياً، يوازي في تعقيداته ودقّته الأنظمة اللغوية التي في الحضارات المتقدّمة.

وبالدقّة: التفاوت بين الحضارتين، المتقدّمة والبدائية، ليس في الأنظمة النحوية والصرفية والصوتية، وإنّما هو في المعجم والثروة اللفظية؛ إذ بروز الأشكال الحياتية الجديدة تستتبع كمّا مفرداتياً إضافياً. (يراجع اللسان والإنسان ٢٢).

ج ـ النشاط اللغوي عند الصمّ والبكم: فأصحاب هذا التوجّه أكّدوا أنّ هذه الفئة تعيش في تغييب لغوي متكامل، فالنشاط التواصلي بينهم يكشف عن النشاط التواصلي عند الإنسان الأول، الذي كان هو الآخر في حالة غياب لغوي.

ولم يصمد هذا الاتجاه أمام النقد؛ لأنّ الموازنة لابدّ أن تكون بين فئتين متكافئتين من الناس، لسحب قوانين الممارسة والإجراء التواصلي من فئةٍ إلى أخرى، ومن الإجحاف بالقدرات الإنسانية، عند الإنسان السوي، أن يُجعل موازياً للإنسان المعاق.

٥ ـ **منهج المقارنة**: وهو الذي يعتمد دراسة لغات مختلفة، ومقارنتها ببعضها؛ للوصول للمشتركات بينها، ووضع اليد

ـ أخيراً ـ على اللغة الأم التي نطق بها الإنسان الأول.

وقد نسي أصحاب هذا الاتجاه أنّ اللغة الحيّة الناضجة الآن، من المحتمل ـ كبيراً ـ أنّها لا تحمل ولا مفردة من مفردات اللغة الأولى؛ لأنّ التطوّر الإنساني الفكري خلق مساحة حضارية شاسعة تفصل بين الإنسان الأول والآخر، بحيث لا يتقاطعان، إلا في كلّيّات الإنسانية وأساسياتها.

كما أنّ البحث، مهما أفرز من نتائج، طبقاً لهذا المنهج، فإنّه لن يفيدنا أكثر من توضيح بعض نقاط التطوّر التاريخي للغة، دون أن يقدّم لنا إجابة عن الطرق الإجرائية في اكتشافها أو تاريخ بدئها. (يراجع اللسان والإنسان ٢١).

مقاربة نهائية:

بعد أن رأينا عقم المناهج الدراسية لاستكشاف أصل اللغة ونشأتها، وضبابية الجهة التي تطلّ على تاريخ الإنسان الأول، قرّر كثير من الدارسين الانسحاب من هذا البحث ـ ولو مؤقّتاً ـ إلى أن يصادفنا الزمن بمعطيات تاريخية جديدة. (الوجيز في فقه اللغة ٦٦).

واعتبر البعض الآخر أنّ البحث عن أصل اللغة ليس بحثا

لغوياً، بقدر ما هو بحث فلسفي أو أنثروبولوجي .

والنتيجة التي ينبغي أن نخرج بها، من هذا الخضمّ المتلاطم بالنظريات، مجموعة من البنود التي استقرّت في ذهنية علماء اللغة، فيما يختصّ بقضية ولادة اللغة :

ـ اللغة ظاهرة إنسانية لصيقة بالإنسان، فولادتها مؤرّخة بولادته، و لم تبق الإنسانية صامتة يوماً من الأيام .

ـ يمتلك الإنسان ـ في نظامه البيولوجي ـ قدرة تؤهّله لاستخدام اللغة تواصليّاً، وهي التي استفزت أعضاءه اللغوية لخلق نظامه، وهذه المقدرة ليست عند الحيوان .

ـ لم تولد اللغة بجميع أبعادها المعجمية والنحوية والصوتية دفعة، بل مرّت بتطوّرات كبيرة، بفعل العمليات التواصلية المستمرّة التي اقتضتها متطلّبات التطوّر الإنساني .

ـ ليست اللغة استمداداً من قوًى ميتافيزيقية، بالمعنى السطحي الذي ساد في حقب زمنية متغيّرة ومجتمعات مختلفة، من أنّ اللغة إلهامٌ ووحيٌ .

نحو نظرية قرآنية في نشأة اللغة:

من الطبيعي جدّا أن تثار إشكالية القصّة القرآنية لآدم(ع)

وتعليمه الأسماء، فإنّها قد تصطدم مع ما ذكر من بدائية اللغة الأولى، وتصطدم مع أصل ما ذكر حول نشأة اللغة، فلماذا لا نجعل الواقعة محاولة لتأسيس نظرية قرآنية مفادها مجموع أمرين:

- اللغة نشأت بتعليمٍ من اللّه لآدم (ع) أب البشر الأول.
- اللغة بدأت بنظام متطوّر من أوّل الأمر.

والصياغة العلمية للدليل تستدعي ذكر المقطع القرآني، وتشريح الاستفادة منه:

قال تعالى: **﴿وَعلّم آدمَ الأسماء كُلّها ثُمّ عرضهم على الملائكة قال أنبؤني بأسماءِ هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علمَ لنا إلا ما علّمتنا إنّك أنت العليمُ الحكيم. قال يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم. فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألمْ أقلْ لكم إنّي أعلم غيبَ السماوات والأرض. وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون﴾.** (البقرة، الآيات ٣٣ ـ ٣٢ ـ ٣١).

ووجه الاستفادة يبتني على دعويين:

الدعوى الأولى: إن نشأة اللغة بتعليم من اللّه لآدم(ع) وذلك لأنّ قوله تعالى **(وعلّم آدم الأسماء كلّها)** يعني علّمه أسماء الأشياء؛ ليقدر بها على التواصل مع أبناءه من جنس الإنسان، وقد ذكر في تفسير **مجمع البيان** عدّة آراء، تلتقي مع ما ذكرنا،

أهمّها :

١ ـ علّمه معاني الأسماء، إذ الأسماء بلا معانٍ لا فائدة فيها (قتادة).

٢ ـ علّمه جميع الأسماء والصناعات وعمارة الأرضين والأطعمة وغرس الأشجار ومنافعها، وجميع ما يتعلّق بعمارة الدين والدنيا (أكثر المفسّرين المتأخّرين وابن عبّاس ومجاهد).

٣ ـ علّمه أسماء الأشياء، ما خلق وما لم يخلق (أبو علي الجبائي).

٤ ـ علّمه أسماء الملائكة وأسماء ذرّيته (الربيع).

ونستنتج من هذه الأقوال أمرين :

الأول : أنّ اللّه لمّا علّم آدم الأسماء قد فتق لسانه ليتكلّم به؛ لأنّ تعليم الأسماء بدون التكلّم بها عبثٌ ولغوٌ .

الثاني : أنّ تعليم اللّه لآدم يحتاج إلى أداة تواصل بينهما، وليس إلا اللغة، فثبت وجود لغة حتى قبل تعليم الأشياء .

الدعوى الثانية : إنّ اللغة كانت متطوّرة منذ اللحظة الأولى، وذلك لأنّ تعليم الأسماء وحدها، بدون الأنظمة الربطية، لا يفي بعملية التواصل اللغوي، فلابدّ من استتباع تعليم الأسماء تعليما للأنظمة النحوية .

وبكـــلمة مختصـــرة: إنّ تعلّم الأسماء بدون النظام النحوي، لا يحقّق الغرض المنشود، وتعليمها به يجعل اللغة متطوّرة، لأنّ اللغة التي تشتمل على مفردات كبيرة ونظم نحوية، لا تقلّ نضجاً عن أي لغة حالية.

نقد النظرية:

رغم الصياغة الكلامية والعقلية التي انبنت عليها الاستنتاجات السابقة، من محيط الآيات الشريفة، إلا أنّه يمكن أن نطرح قبالها ثلاث ملاحظات:

الأولى: ـ وهـــي ملاحظة تفسيرية ـ أنّ الاستخدام اللغوي لكـــلمة (الأسمـــاء) ـ محـــلاّةً بأل ـ يحتمل أحد وجهين: إمّا الاســـتغراق، وعـــليه قـــامت الاســـتفادات الآنفة، وإمّا العهد الحضوري، الذي يعني حضور شخوص معيّنة أُشير لها بأل، وإذا احتمل هذا الوجه، ينهدم أساس الاستدلال.

ويمكـــن أن نستفيد الدلالة على حضور شخوص معيّنة أشير إليهـــا، فتكون دلالة (ال) حضورية، وذلك بقرينة التعبير بضمير العاقل في قوله (أنبئوني بأسماء هؤلاء) و(وأنبئهم بأسمائهم)، وهذا يدلّ على أنّ شخوصا عاقلة حاضرة في مقام الخطاب، وهي غير

مبيّنة في النصّ القرآني، فيمكن الرجوع لمعرفتها للسنة الشريفة.

وأمّا ما فهمه البعض من أنّ اللّه خلق جميع الأشياء في ذلك اليوم، وعرضت على الملائكة، فهذا غير محتمل؛ لتجدّد المخلوقات عياناً يوماً بعد يوم.

الثانية: تركّزت أحداث القصّة القرآنية على إبراز فضيلة الإنسان على المَلَك؛ لأنّ الإنسان هو المهيّأ لخلافة الأرض. والتساؤل هنا: ما هو دور تعليمه اللغة؛ لتكون ميزة للإنسان على المَلَك، خصوصاً وأنّ الملائكة لهم طرقهم التواصلية الخاصّة؟.

الثالثة: هناك نقطة غموض في القصّة، وهي: كيفيّة التواصل الثلاثي بين اللّه والإنسان والملك، واللّه سبحانه منزّه عن التحدّث بالأصوات اللغوية، كما أنّ الملائكة ليسوا من جنس البشر، حتى تدخل في إطار الحوار الكلامي مع اللّه أو آدم.. كلّ ذلك لم تكن الآيات الشريفة في صدد بيانه؛ لأنّها في صدد تفصيل ميزة الإنسان المهيّأ لخلافة الأرض، فلا دخل للآية في الاستدلالات على تعليم اللغة؛ كما أنّ الحوارية، بين ثلاثي الإله والملك والإنسان، تمّت في عالم ليس هو العالم الماديّ الذي نعيشه، حتى يحتاج التواصل فيما بينهم إلى اللغة ـ بالمفهوم الذي نعالجه ـ.

طفولة اللغة

تاريخ

قال علماء اللغة: إنّ اللغات الإنسانية كلّها مشتقّة من أصل واحد، يسمّى: اللغة الأصلية أو اللغة الوالدة أو اللغة الأم. (المعجم المفصّل ٥٠٥).

والسؤال الشائك: كيف كانت طفولة اللغة الأولى؟

لم تكن هناك إجابات شافية ولا مقنعة في هذا الصدد، إلا أنّ الرأي الأشهر يقول: إنّ الإنسان الأوّل نشأ بين العراق وأرمينيا، وتكلّم لغة تفي بأغراضه الاجتماعية آنذاك، ولمّا أخذ المجتمع الإنساني الأوّل يتكاثر بالتناسل الطبيعي، ازدادت متطلّبات المعيشة، ممّا جعل مجموعات تفكّر في المغادرة لمواطن أخرى، طلباً للعيش.

قالوا: والظاهر أنّ أهل اللغات المنحطّة ـ كالصينيين والمصريين القدماء ـ كانوا أقدم من رحل عن موطن الإنسان

الأول إلى مواطـــنهم الـــتي عمّروها، إلى أن حفرت لغتهم قبرها هناك .

وبعدهـــم هاجـــر أجـــداد الأمم التي تتكلّم اللغة الطورانية، فسكنوا شمال آسيا، ومنهم المغول والتتار .

وبعد هؤلاء نزح أجداد الأمم التي تتكلّم اللغة الآرية، فتوزّعوا في جهات الهند وإيران وكردستان وأوروبا .

وبعـــد ذلك هاجر أجداد الأمم الساميّة إلى موطنهم، الذي يرجّح أكثر العلماء أنّه الجزيرة العربية .

نظام اللغة الأصلية

لم يكن البحث عن اكتشاف أنظمة اللغة الأصلية مسهباً؛ لأنّه ليس من السهل الحدس بما وراء التاريخ (ما وراء الكتابة)، فليس للإنســـان الأول نقوش يمكنها أن تكتنز تفكيره اللغوي، ورؤاه الاجتماعية والثقافية، ومن هنا لا يناسب قضاء الوقت الطويل في دائرة الحدس، بعيداً عن منهج الاستقراء والتجريب الميداني .

و لم تطرح نظرية تحليلية لأنظمة اللغة الأصلية إلا نظرية **شليغل shelegel**، حيث قسّم اللغات في العالم إلى ثلاثة أقسام رئيسة :

ـ اللغات العازلة **isolantes**

ـ اللغات الالصاقية **rantes agglome**

ـ اللغات التحليلية **tigues analy**

وترى هذه النظرية أنّ اللغة الإنسانية نشأت عازلة،ثمّ تطوّرت فأصبحت إلصاقية، ثمّ ارتقت أخيراً إلى التحليلية .

أ ـ واللغة العازلة هي غير المتصرّفة، وأصولها لا تلصق بها زوائد، لا قبلها ولا بعدها، فكلّ كلمة من كلماتها تلزم صورة واحدة لا تتغيرّ، وتدلّ على معنى ثابت، كما أنّ هذه اللغات محرومة من الأدوات النحوية، التي تقوم بوظيفة الربط بين أجزاء الجملة، فتوضع كلماتها متجاورة، وتفهم علاقات الكلمات من السياق، ويدخل في هذه اللغة الصينية وكثير من اللغات البدائية .

ب ـ واللغة الإلصاقية لغة وصلية؛ أي تتغير معاني الكلمات فيها عن طريق وصل أحرف بأول الكلمة أو بنهايتها، فما لصق بالأوّل سُمّي صدراً **Prefixe** ، وما لصق بالآخر سُمّي عجزاً **suffixe** ، وبهذه الأعجاز والصدور تتوصّل هذه الطائفة من اللغات إلى ربط أجزاء الجملة، وبيان علاقة كلّ جزء بالآخر منها، وينتمي لهذ اللغات اليابانية والتركية وبعض اللغات البدائية.

ج ـ واللغة التحليلية هي اللغة التي تمتاز بتصرّف كلماتها؛ أي تتغيّر أبنيتها بحسب تغيّر معانيها، وبوجود أدوات نحوية تقوم

بوظيفـــة الربط بين أجزائها، فالتصرّف مثاله: كتَبَ ـ كتاب ـ مكـــتوب ـ كـــتابة ـ كُتُب ـ كاتب . . وأمّا أدوات الربط فمثالها (الواو) و (الباء) في قولنا (آمن باللّه الأنس والجن) ، ومـــن هـــذه اللغات السامية وفي طليعتها العربية، وأكثر اللغات الهندية ـ الأوروبية .

ويســـتدلّ صـــاحب النظرية على أنّ اللغة الإنسانية بدأت عازلـــة، فإلصاقية فتحليلية، كلغة الطفل ولغات الأمم السابقة، ويـــرى أنّ مرحـــلة التصـــريف مرحلة متأخّرة في عمر اللغات الإنســـانية، وأنّ الألسنة التي لا تزال حتى اليوم عازلة أو لاصقة وقفـــت في نموّها عند مرحلة من مراحل التطوّر و لم تتجاوزها. (بالمقارنة بين الوجيز في فقه اللغه ٦٣ ودراسات في فقه اللغة٤٥).

نقد نظرية شليغل

لم تـــلق هذه النظرية التأييد الكامل من علماء اللغة، بل إنّ أكـــثرهم يرفضـــها لكثرة الشواهد الدالّة على خلافها؛ إذ ظهر لهؤلاء أنّ التصريف واللصق والعزل طرقٌ تُرى في كلّ لسان، ولا يخـــتص بإحداها لسان دون آخر، فالعربية ـ مثلاً ـ وهي أكثر الألســـنة اعـــتماداً على التصريف، تلجأ في بعض الأحايين إلى

اللصـــق، للتعـــبير عن المعاني الجديدة، ونظرة واحدة إلى الفعلين (جاوز ـ تجاوز) ترينا عدم الفارق بينهما، إلا بالتاء التي التصقت لتضيف تعديلا على مدلول الفعل، كما تلجأ في كثير من أحايين أخرى إلى طريقة العزل، مستغنية عن الأدوات النحوية بالتركيب لإفـــادة المعـــنى، فقولنا (ضرب موسى عيسى) ليس فيه ما يفيد الفاعلية والمفعولية سوى الترتيب والتجاور بين الكلمات.

ومـــا يقال في اللغة العربيه يقال في غيرها من اللغات، فكما تســـتعمل التصـــريف تستعمل العزل والإلصاق، ولكنّه بنسب مختلفة.

ولهـــذا الســـبب لا يمكن قبول هذا التصنيف، كما لا يمكن التســـليم بـــأنّ اللغة الإنساينة سلكت في تطوّرها هذا الطريق. (الوجيز ٦٤).

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

عوائل اللغة

قبل أن نذكر النظريات التي حاولت رفع الستار عن مسألة العوائل اللغوية، نشير إلى أنّ تفصيل اللغات العالمية إلى عوائل يرجع الفضل فيه إلى فرع من علم اللغة العام، ويُسمّى **فقه اللغة المقارن comparative philagy** الذي هو أحد مناهج دراسة اللغة، والذي ما نفكّ يوافينا بنتائج مذهلة.

ومناهج الدراسة اللغوية ثلاثة :

ـ المنهج الوصفي: وهو الذي يدرس شريحة زمنية خاصّة، تمرّ على اللغة أو اللهجة، من مجموع حركتها التطوّرية في عمود الزمن .

ـ المنهج التاريخي: وهو الذي يدرس التطوّرات والتغيّرات الطارئة على لغة أو لهجة معيّنة، خلال حركتها الزمنية .

ـ المنهج المقارن: وهو الذي يدرس مجموعة من اللغات أو اللهجات؛ بغية الوصول إلى أوجه الاشتراك والاختلاف، ومدى

علاقتها ببعضها البعض.

ومـــن بين هذه المناهج استطال عنق المنهج المقارن في القرن التاسع عشر، حتى صار الشغل الشاغل لعلماء اللغة. (فقه اللغة ـ السعران ٢٤٣).

كما لابدّ أن نشير ـ أيضاً ـ إلى أنّ تفصيل اللغات إلى عوائل ليـــس أمـــراً ميسوراً؛ وذلك لارتكازه على الاطّلاع على جميع اللغات الحية في العصر الحالي ـــ على الأقلّ ـــ ولا ريب في عسر هذه العملية الإحصائية، وإذا قرأنا المحاولات الميدانية لدى العلماء فلن نرى غير أرقام تقريبية، والأرقام التي يقدّمها اللغويون مختلفة جدّا، وهي تتراوح بين ٢٥٠٠ إلى ٣٥٠٠ لغة.

وهـــذه اللغات بأجمعها لا يمكن أن تجعل في ميزان واحد من ناحية الأهمية، ففي إحصاء نشره الباحث اللغوي إ. تينير في عام ١٩٢٨م يتـــبيّن أنّ هناك تسعا وعشرين لغة ـ فقط ـ في العالم يستعمل كلاً منها مجتمع يزيد على العشرة ملايين نسمة، ويبدو أنّ الـــلغات التي لها ثقافة وأدب يعتدّ بهما خمسون لغة في العالم كـــلّه، أمّـــا اللغات التي تتمتّع بالأهمية العالمية، من حيث سعة انتشارها، أو قيمة تراثها المكتوب، فإنّها لا تصل إلى نصف هذا العدد. (اللسان والإنسان ١٣٤).

وبعد هذا كلّه تقف أمامنا عقبات في طريق تصنيف اللغات إلى عوائل، وقد لخص هذه العقبات **إدوارد سابير** في التالي:

١ ـ ليست هناك نقطة بدء تفرض نفسها منطقياً، عندما نشرع في هذا التصنيف.

٢ ـ إنّ تصنيف اللغات ـ التي تعدّ بالآلاف ـ تحت فصائل تعدّ على أصابع اليد، أمرٌ خطير جدّاً، إذا علمنا أنّ كلّ علماء اللغويات يجهلون معظم هذه الآلاف من اللغات.

٣ ـ إنّ هذا التصنيف هو ميل إلى التبسيط في مسائل من أشدّ الأمور تعقيداً، ومن السذاجة أن نحدّد بطريقة ما ـ غالبا تكون تحكّمية بحتة ـ قطبين يندرج بينهما التصنيف، نقطة بدءٍ ونقطة انتهاء، أي ما نفترض كونه طرفي نقيض؛ كاللغة الصينية من ناحية واللغة اللاتينية من ناحية أخرى، ثمّ نحاول أن نحشر لغات البشر بينهما، بشكل أو بآخر.

٤ ـ الإسراف في الإيمان بفكرة التطوّر التقدّمي، التي قال بها الاجتماعيون في القرن التاسع عشر، ومحاولة اللغويين نقل هذه الفكرة إلى البحث اللغوي؛ إذ كثير من أولئك رأى أنّ اللغة اليونانية واللغة اللاتينية هما أرقى صور الكلام التي ظهرت بين البشر، وساعد على ذلك ارتباطهم منذ الطفولة بالتراث اليوناني

واللاتيني في اللغة والتاريخ والحضارة، في المدارس التي تعلّموا بها، فتبـــلورت لديهم وجدانياً ـ لا عقلياً ـ حالة إعجاب أو تقديس لهـــاتين اللغتين، وجعلوهما المثل الأعلى عند المقارنة والقياس، في حـــين أنّه ـ على محكّ النظر العقلي ـ لا دليل على امتيازٍ لغوي لليونانية أو اللاتينية. (اللسان والإنسان ١٤١).

وبعـــد هـــذه الجولة السريعة أظنّ أنّنا على أهبة الاستعداد للتعرّف على النظريّات التي طرحت لتقسيم اللغات إلى فصائل، ونحـــن ســـنذكر ثلاث نظريات؛ للاختلاف المنهجي التي انبنت عليه:

الأولى: التقسيم على الأساس الاثنولوجي (العنصري)

وهـــذا الأســـلوب التصنيفي أقدم الأساليب لدى الباحثين الأوروبيـــين، فمـــثلاً الأستاذان الفرنسيان **أنطوان مييه ومارسيل كوهـــين** في كـــتابهما المشهور (لغات العالم) حاولا ربط العوائل اللغوية باعتبارات عنصرية .

وأول تقســـيم للأجناس البشرية، التي على أساسها انقسمت الـــلغات، هو تقسيم التوراة التي أرجعت النوع البشري ـ على تعـــدّد قـــبائله وشعوبه وأممه ـ إلى أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافث.

١ ـ الجنس السامي: ويعدّ ـ في التوراة ـ الجنس الممتاز من بين الأجناس الإنسانية.

٢ ـ الجنس الحامي: ويعدّ كذلك جنساً متقدّماً، وقد استمرّت وحدته الطبيعية وجنسيّته مع الجنس السامي، جنبا إلى جنب، حتى أنّ البعض عدّهما جنسا واحدا يعرف باسم **الجنس السامي ـ الحامي** لما وجد من الامتزاج بينهما .

٣ ـ الجنس اليافثي : وهذا الجنس لم يحتفظ بوحدته وارتباط شعوبه وأممه، وقد وضع له اسمٌ آخر، هو (الجنس الآري) أو (الجنس الهدوجرماني).

نقد نظرية التقسيم الاثنولوجي:

رغم ما أثرته هذه النظرية من صناعة الذاكرة الاجتماعية؛ حيث لم يزل الحديث قائماً عن (الجنس اللاتيني) و(الجنس الجرماني) إلا أنّها رميت بالغلط لأمرين، هما:

الأوّل: تعتمد هذه النظرية على الخلط بين الأجناس واللغات، وقد أطبق علماء الأنثروبولوجيا أنّ الجغرافية اللغوية لا تنطبق تماماً على الجغرافية العرقية، والتوزيع اللغوي لن يتّفق أبدا مع توزيع السلالات البشرية .

وعندنا مثال صارخ في التاريخ الحديث، هو الولايات المتّحدة الأمريكية، التي يعيش في ربوعها مهاجرون، منهم من ينتمي إلى أصـــول شمالية: اسكندنافية، وجرمانية، وبريطانية.. الخ، ومنهم اللاتـــين: فرنســـيون، واسبان، وإيطاليون.. الخ،ومنهم البلقان والصـــقالبة واليهود والزنوج والعرب والهنود الحمر والصينيون والماليـــزيون... الخ، كـــلّ هؤلاء غلبت عليهم لغة واحدة هي الانجيليزية المتأمركة، فلا تكاد ترى مثل هذا المزيج من السلالات والعروق، ولكن لغتها واحدة.

ولا يســـعنا أن نغفل دور السلالة في تحديد طبيعة اللغة، في كـــثير مـــن المجتمعات، إلا أننّا مع ذلك لا نغفل كلام اللغوي الفرنسي **فندريس** حيث يقول: **مهما كان الدور الذي لعبه التغيير الطـــارئ على الأجناس في تغيير اللغات، فإنّنا لا نستطيع أن نقول بارتـــباط ضروري بين الأمرين، بل يجب أن لا نخلط بين المميزات الســـلالية الـــتي لا يمكـــن توفّرها إلا عن طريق الدم، والظواهر الوضـــعية، كاللغة والدين والثقافة، التي يمكن نقلها من أناس إلى آخرين، وتبادلها بين البشر.** (اللسان والانسان ١٥٩).

الثاني: إنّ التوزيع اللغوي الذي رُبط بالسلالات كان معظمه مبنياً على فلوكلور يهودي، مبني على تأويل متعسّف للإصحاح

العاشر من سفر التكوين ـ في مقام الحديث عن سلالات البشر ـ، والواقع أنّ التوزيع في هذا الإصحاح إنّما كان يخضع لموقف وجداني، نابع من عقلية بدائية، قسّمت شعوب العالم إلى ثلاث فئات: إحداهما خيّرة، والأخرى شرّيرة، والثالثة مبعدة وغير معروفة. ثمّ نسب اليهود أنفسهم إلى الفئة الخيّرة ـ طبعاً ـ، أمّا الفئة الشرّيرة فجعلوها من أبناء حام بن نوح، الذي لعنه أبوه، ولعن سلالته من بعده، فقد جاء في الإصحاح التاسع من هذا السفر:

..وابتدأ نوح يحرث الأرض، وغرس كرما، وشرب من الخمر فسكر، وتكشّف وهو في خبائه، فرأى حام أبو كنعان سوأة أبيه، فأخبر أخويه الذين كانا في الخارج، فأخذ سام ويافث رداءً وجعلاه على منكبيهما، ومشيا مستديرين، فغطيا سوأة أبيهما، وأوجههما إلى الوراء، فلم يريا سوأة أبيهما، فلمّا أفاق نوح من خمره علم ما صنع به ابنه الصغير، فقال ملعونٌ كنعان، عبدا يكون لعبيد أخوته، وقال تبارك الربّ إله سام، وليكن كنعان عبدا له، ليفسح اللّه ليافث، فيسكن في أخبية سام، ويكون كنعان عبدا له.

وظنّ آباء الدين اليهودي أنّ اللعنة تظهر مادّيا في سواد البشرة، فجعلوا كلّ الزنوج والعبيد من نسل حام، و لم يتنبّأوا لهم

بـــالخلاص إلى الأبـــد، وقـــد لعن أبوهم من الأيّام الأولى بعد الطوفان.

وانطلاقـــاً من هذه الفكرة العنصرية، ألحق اليهود كلّ من لا يحبّون من الناس بهذه السلالة الملعونة: ألحقوا بها المصريين، وهم ليســـوا ســـلالة نقيـــة، وإنّما هم مزيج سلالات، وألحقوا بها الكنعانيين مع أنّ لغتهم أقرب اللغات إلى العبرية، وهم أصحاب فلســـطين الأصليون، وهم أقرب من اليهود إلى السلالة السامية الخالصـــة، ولكنّهم كانوا أعداءهم سياسياً، فوصموهم بالنسب اللعين. (اللسان والانسان ١٦٠).

وبعـــد هذين الأمرين نعرف أنّ التقسيم الاثنولوجي لم يقم عـــلى أساس علمي، وإنّما قام على أساس خرافي، حبكته اليهود لتبرير مواقفهم التاريخيّة. ولكن مثل هذا الفلوكلور لا يخفى على النقد الموضوعي.

الثانية: التقسيم على الأساس التكنولوجي

والمقصـــود من هذا الأساس التقسيمي، الكيفيّة التي تؤدّي بها الـــلغة أغراضها التواصلية، بما تمتلك من أنظمة مختلفة، وقوانين متداخلة، وقد قسّمت على هذا الأساس إلى قسمين رئيسين :

١ ـ **اللغات المنحطّة**:وهي التي لم تنل حظّاً كبيراً من القدرة

عـــلى إبانـــة المعـــاني المختلفة؛ لبساطتها من الناحية المفرداتية والتركيبية، وعرفوا منها اللغات الأفريقية، والأمريكية التي يتكلّم بها شعوب أمريكا الأصليون، ولغات شمال آسيا، واللغة الصينية.

ومـــن صفاتها أنّها أُحادية المقطع، وليس فيها فرق بين الإسم والفعل والحرف ، فقد تكون الكلمة الواحدة إسما أو فعلا بإضافة ألفاظ أخرى إليها. والمقطع هو : واحدة صوتية، أكبر من واحدة الصوت المفرد (الفونيم)، وتتألّف هذه الواحدة من صوت طليق واحـــد، قصيراً كان أم طويلاً، وصوت حبيس، واحداً كان أم أكـــثر نحـــو (مالْ) إذ فيها مقطع واحد، يتألّف من طليق واحد (الألف) أو(الفتحة الطويلة) وحبيسين هما (الميم) و(اللام) ونحو (جـــاني) المؤلّف من مقطعين هما (جا) و(ني)، و(كتب) المؤلّف مـــن ثلاثة مقاطع (كَ + تَ + بَ) . (يراجع المعجم المفصلّ ٢/ ٦١٣).

٢ ـ الـــلغات المرتقية:وهي التي حظيت بطاقةٍ تعبيرية على بيـــان المعاني المختلفة؛ لاغتنائها بالألفاظ وطرق التعبير، ولتعقّد أنظمتها، بحيث تكون وافية بما يحتاجه الإنسان، تواصلياً وتعبيرياً، وقد قسمت هذه اللغات أيضا إلى قسمين، هما :

أ ـ الـــلغات المتصـــرّفة: وهي التي تقبل أصولها التصريف

والتغيير في البنى المفرداتية، وتنقسم هذه اللغات إلى طائفتين عظيمتين، هما:

الأُولى: الآرية أو الهندية الأوروبية: وتنقسم هذه جنوبية وشمالية؛ فالجنوبية هي لغات جنوب آسيا، وهي اللغة السنسكريتية، وأمّا الشمالية فمنها لغات أوروبا.

الثانية: السامية وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي: الآراميّة، والعبرانية والعربية، وهي أرقى اللغات السامية.

ب ـ **اللغات غير المتصرّفة:** وهي التي تمتاز بكونها مؤلّفة من أصول جامدة، لا تقبل التحوّل، وأنّ الاشتقاق فيها يقوم على أساس إلحاق الأدوات بأواخرها، ومنها اللغة التركية. (دائرة معارف القرن العشرين ٣٦٤ / ٨).

نقد نظرية التقسيم التكنولوجي:

رغم ما نرى في هذه النظرية من قسمة علمية مثيرة، إلا أنّ الملاحظة التي توجّه ضدّها هي عدم الارتكاز على منهج تقسيمي واحد، وبتعبير منطقي: لم تفترض هذه القسمة أساسا واحداً يكون ملحوظاً في جميع طبقاتها، و من الشروط المنطقية للقسمة وحدة الأساس الذي تبتني عليه، فتقسيم اللغات إلى: مرتقية ومنحطّة، مبنيٌّ على أساس طبيعة الأنظمة، وقدرتها على سدّ

حاجـــات الإنســـان الحياتية التواصلية، ومن الواضح أنّ تقسيم الـــلغات المـــرتقية إلى متصـــرّفة وغير متصرّفة منسجمٌ مع هذا الأساس، ولا يتوجّه عليه أي نقد، بينما تقسيم اللغات المتصرّفة إلى الهـــندية الأوروبية والسامية ـ اللذين هما بدورهما يضمّان في داخـــلهما كمّـــاً كبيراً من الأقسام ـ يعدّ خروجاً عن الأساس التقســـيمي؛ لأنّ هـــذا التنويع كان مستمدّاً من معطيات منهج تقسيمي آخر قائمٍ على أساس دراسة ميدانية تاريخية، وليس على أساس الأنظمة ومدى تباينها .

وبالجملة : فقد اعتمدت النظرية التكنولوجية طبيعة تكنيك اللغة أساسا لتقسيمها، ثمّ استعارت أساسا آخر في بعض أدوارها التقسيمية، وهو من الأخطاء المنهجية .

الثالثة: التقسيم على أساس صلة القرابة :

وهـــي النظرية المعروفة بنظرية **ماكس مولر Max.Moller** وهي القائمة على أساس ملاحظة التماثل أو التشابه في الكلمات وقواعـــد البـــنية والـــتراكيب بين اللغات، واكتشاف الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية بينها، وقد قسّم العلماء اللغات إلى مجموعتين هامّتين، سموا إحداهما (الهندية الأوربية) والأُخرى

(الحامية ـ السامية)، ثمّ جاء **ماكس مولر** بتقسيم ثلاثي للغات:

أ ـ اللغات الهندية الأوروبية :

ومـــن العســـير تحديد موطنها الأصلي، فمن ذاهبٍ إلى أنّها نشأت في آسيا الوسطى بمنطقة (تركستان)، ومن قائل بنشأتها في المناطق الروسية ضمن أوروبا الشرقيّة، ومن قائل إنّها نشأت في مناطق بحر البلطيق.

وهـــي أكثر اللغات الإنسانية انتشارا، إذ يتكلّم بها الآن جميع ســـكّان أوروبـــا وأمـــريكا واستراليا وجنوب أفريقيا، ما عدا جماعـــات قليلة من سكّان هذه المناطق، كما يتكلّم بها كثير من سكّان آسيا كالهنود والإيرانيين والأفغانيين والأكراد والأرمن... الخ.

وتمـــتاز هذه الفصيلة بكثرة شعبها، واتّساع هوة الخلاف بين أفراده، وقد سلك كلّ لسان من ألسنتها سبيلا يختلف عن سبيل غيره، فكثرت وجوه الاختلاف بينها، حتى أنّ بعضها ليبدو غريبا عـــن بعض، ولا تظهر صلة القرابة فيه إلا بعد تأمّل وعمق نظر، ويـــرجع هذا التباين بينها لتباين البيئات التي انتشرت فيها هذه الأسرة، تبايناً كبيراً، وقد أدرجوا تحتها ثماني طوائف لغوية:

١ ـ اللغات الآرية : ومنها اللغة الفارسية والأفغانية والبخارية

والكردية والأرمنية .

٢ ـ اللغات اليونانية : وتشمل اليونانية القديمة واليونانية الحديثة، التي قامت على أنقاض القديمة، في قرون ما قبل الميلاد.

٣ ـ اللغات الإيطالية: وأهمّ فروعها اللاتينية، التي تشعّبت منها الفرنسية والإسبانية والإيطالية الحالية والبرتغالية ولغة رومانية.

٤ ـ اللغات الجرمانية : وأهمّها شعبتان، هما اللغات الجرمانية الغربية، ومنها الانجليزية الحديثة والألمانية والهولندية، واللغات الجرمانية الشمالية، ومنها الدينماركية والسويدية والنرويجية.

٥ ـ اللغات السلافية: ومنها الروسية والتشيكية والبولونية والبلغارية الحديثة.

٦ ـ اللغات الأرمنية: وهي مجوعة اللغات المستعملة في أرمينيا وجورجيا وآذربيجان.

٧ ـ اللغات الألبانية: وهي المستعملة في ألبانيا.

٨ ـ اللغات الكلتية: وهي التي ينطق بها شعوب الكلت **Lesceltes** وقد طغت عليها الانجليزية والفرنسية والإسبانية، وإن بقيت بعض ظواهرها في لهجات إيرلندا.

ب : اللغات الحامية ـ السامية:

ولابدّ أن ننوّه أنّ التسمية لهذه الفصيلة مجرّد اصطلاح،

وليســـت تشير إلى أقوام تجمع بينهم علاقة عرقية ووحدة نسبية، وقد أكّدنا سابقا أن لا علاقة لازمة بين الأصل العنصري لشعبٍ من الشعوب، وبين اللسان الذي يتكلّمون به .

وعلى أي حال ليست المناطق التي شغلتها هذه الفصيلة بنحوٍ من الاتّساع، كما عليه الفصيلة الهندية ـ الأوروبية، فلا يعدو ما تشغله بلاد العرب وشمال أفريقيا، وجزءاً من شرقي أفريقيا، وهي تتمثّل في عائلتين :

١ ـ **العائلة الحامية**: وأصل هذه العائلة لغات قديمة ازدهرت في أواسط القارّة الأفريقية، وقد اندثر بعضها، وظلّ البعض الآخر ينـــتقل مـــن مكـــان إلى مكان، ويتفاعل مع غيره من اللغات، خصوصـــاً العائـــلة الســـامية، التي تعتبر العربية أبرزها، ويرجع التفاعل بينهما إلى الاتّصال بين آسيا وأفريقيا، عن طريق مضيق بـــاب المندب وطريق سيناء، أمّا تحديد هذا التفاعل تاريخياً فهو غامض، لكنّه موغل في مجاهل ما قبل التاريخ .

ومـــن اللغات الحامية المصرية القديمة والبربرية والكوشيتية، وتعتبر البربرية هي اللغات المتداولة عن السكّان الأصليين لشمال أفـــريقيا (تونس والجزائر وطرابلس والصحراء) ، أمّا الكوشيتية فهي لغة السكّان الأصليين للقسم الشرقي من أفريقيا، ويتكلّم بها

ثلث سكّان الحبشة، والباقي منهم يتكلّم بلغات سامية.

٢ ـ **العائلة السامية**: وأوّل من أطلق هذه التسمية هو (شوتسر) في سنة ١٨٧١م، ثمّ تابعه من جاء بعده من علماء اللغة والتاريخ، وقد اختلفوا في الموطن الأصلي لهذه العائلة، فمن زاعم إلى أنّها نشأت في أرض أرمينية، بالغرب من حدود كردستان، إلى آخر يزعم أنّ بلاد الحبشة هي الموطن الأصلي للساميين، وثالث يرى أنّه أرض اليمن، أو القسم الجنوبي الغربي من جزيرة العرب.

غير أنّ أرجح الأقوال، والذي يكاد الإجماع ينعقد عليه عند أكثر المحقّقين، وعلماء اللغة، هو أنّ جزيرة العرب ـ من غير تحديد لمنطقة من مناطقها ـ كانت الموطن الأصلي لكلّ الشعوب السامية.

ويستدلّون على ذلك بأنّ التاريخ القديم قد صرّح بخروج كثير من الأمم السامية من هذه الجزيرة، مثل الأكديين والآراميين والكنعانيين وغيرهم، كما أنّ جميع الأمم السامية تغلب عليهم مسحة البداوة والطبائع الصحراوية، ولا تفسير لذلك إلا أنّهم قد عاشوا بعض أدوار حياتهم الأولى في الصحراء، ولا يحتمل إلا جزيرة العرب، مع انضمام ما ذكر سابقا.

وقد انشعبت الفصيلة السامية إلى لغات كثيرة، بعضها اندثر، وبعضها لم يزل يحتفظ بالقوّة والصمود، وسنذكر موجزاً لتاريخ اللغات السامية وطبيعتها بعد هذه النظرية .

ج : اللغات الطورانية :

وهـــو اصطلاح يعنون به مجموعة اللغات المتنوّعة والمتباعدة، وليس بينها روابط لغوية واضحة، وهذا ما دعا المحدّثين من علماء الـــلغة إلى تقســـيم ما بقي من اللغات الإنسانية إلى تسع عشرة فصيلة، تنفرد كلّ واحدة منها بروابط القرابة اللغوية في الأُصول والقواعد والتركيب، وأهمّ هذه الفصائل التالي :

١ ـ فصيلة اللغات الطورانية : كالتركية والمغولية والمنشورية، وبها سمّى ماكس مولر جميع الفضائل الباقية، على سبيل الاصطلاح الخاص .

٢ ـ فصيلة اللغات اليابانية .

٣ ـ فصيلة اللغات الصينية ـ التيبتية .

٤ ـ فصيلة اللغات الكورية .

٥ ـ فصيلة اللغات القوقازية، ويستثنى منها اللغات القوقازية السامية والهندواُوروبية .

٦ ـ لغات الهنود الحمر في أمريكيا، وهم سكّانها الأصليون .

٧ ـ لغالت السودان وغانا، وقد قسّمت إلى ٤٣٥ لغة، ترجع إلى ستّ عشرة شعبة .

٨ ـ اللغات الملاوية البوليترية، ومنها الأندونيسية .

وبعد هذا العرض المفصّل لنظرية **ماكس مولـــور** نقول: إنّها الـــنظرية الـــتي لاقت قبولاً واسعاً من ناحية أصل التقسيم، وإن حصـــل نقـــاش، ففي التقسيمات الفرعية، و لم تقف الدراسات المقارنة عند هذا الحدّ، وإنّما حاول كثير من الباحثين أن يقارنوا بين الفصيلة السامية والهندية الأوربية .

ولابـــدّ أن نـــردف هذا البحث بعرض سريع عـــن اللغات السامية، لأهمية الموضوع لدى القارئ العربي بالخصوص .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

اللغات السامية.. مقاربة زمنية

نظراً لكون اللغة العربية ــ التي تعدّ أجلى مظاهر اللغة السامية ــ لصيقة بنا، ولندرة التاريخ المدوّن عن اللغات السامية، ناسب أن نقوم بإطلالة سريعة عليها.. وقد قسّم العلماء اللغات الساميّة إلى سبع فئات، نسبةً للقبائل التي تمارسها تواصليّا، وهي كالتالي:

١ــ الأكديون

سمّوا بذلك نسبة للمنطقة التي سكنوها في جنوب العراق (أكّد)، ويسمّيهم البعض البابليين، نسبة إلى بابل التي بنوها، وجعلوها عاصمة لهم، كما يسمّيهم البعض الكلدانيين، نسبة إلى إحدى الأُسر التي حكمت بابل خلال تاريخها الطويل.

وقد خرجوا من الجزيرة العربية أو من سورية ــ على خلاف في ذلك ــ حوالي سنة ٣٥٠٠ق م، وقد كانت منطقة جنوب العراق آنذاك مأهولة بشعب يسمّى الشعب الشُّومري، نسبة إلى

شُـــومر:وهي المنطقة التي تشرف على الخليج العربي في جنوب العراق.

ورغم الغموض الذي يلفّ التاريخ الشومري، إلا أنّ النقوش المسمارية تكشف أنّ الآشوريين كانوا أصحاب حضارة راقية في الحســـاب والفلك والتشريع، وقد سيطروا على بابل بعد ضعف البابـــليين، ومـــدّوا نفوذهم حتى شمال العراق، حيث عاصمتهم **آشـــور** وهي بلدة صغيرة هناك، وقد انتقلت العاصمة إلى مدينة **كالاح** حوالي سنة ١٢٩٠ق م.

وأمّا اللسان الأكدي فقد كتب بالخط الشومري المسماري، ويتـــبيّن منه أنّ أبجديّته لا تحتوي إلا على ثمانية عشر حرفاً فقط (أ ب ج د ز ح ط ك ل م ن س ث ص ق ر ش ت).

وقـــد ظـــلّ صـــراع طويل بين اللسان الشومري واللسان الاكدي مدّة طويلة من الزمن.

٢ ـ الكنعانيون

يعتقد العلماء أنّ القبائل الكنعانية خرجت من الجزيرة العربية سنة ٢٥٠٠ ق م واستوطنت بلاد الشام، و لم يثبت تاريخيّا أنّها كانت مأهولة بأحد قبلهم.

أسّس الكنعانيون مجموعتين من المماليك في الشام: مجموعة داخلية، انقرضت سريعا بوصول العنصر الآرامي والاسرائيلي، ومجموعة ساحلية ظلّت تقاوم حتى القرن الأول الميلادي.

وكان الشعب الكنعاني قليل الاهتمام بتدوين حضارته، فإنّ أقدم نقش عثر عليه لهم لا يعود إلى ما قبل القرن التاسع قبل الميلاد في شمال سورية، وإن أعظم ما قدّمه الكنعانيون إلى العالم هو أبجديّتهم الصوتية الهجائية، التي مثّلت كلّ صوت بعلامة خاصّة، وصارت أساساً لجمع أبجديّات العالم المتمدّن في الشرق والغرب

٣ ـ العبريون

تدلّ كلمة (العبري) في الاستعمال العربي والعبري على التنقّل، وسموا بذلك لأنّهم بُداة يتنقّلون من مكان إلى آخر، فقد كانت القبائل العبرية تتجوّل في صحراء سيناء وشمال الحجاز، حتى استولوا على فلسطين، حوالي نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وعرفوا المدنية والحضارة، فصاروا ينفرون من كلمة (عبري) لأنّها تذكّرهم بحياتهم الأُولى البدوية والخشنة، وأصبحوا يطلقون على أنفسهم بني إسرائيل.

والظاهر أنّهم انقرضوا كما انقرض أبناء عمومتهم العمالقة وغيرهم، إمّا بسبب الحروب الطاحنة التي جرت في أراضيهم بين دول الشرق والغرب، وإمّا بسبب امتزاجهم وذوبانهم في الشعوب المجاورة، ولا سيّما الآراميين.

أمّا اليهود في العالم اليوم، فليسوا هم بني إسرائيل الذين تفرّقوا في البلاد، بسبب الظروف السياسيّة، وإن ادّعت النظرية الصهيونية ذلك، وإنّما هم أمشاج من أمم شتى تهوّدت في أزمان مختلفة في التاريخ.

وأمّا اللسان العبري فهو شديد الشبه باللسان الكنعاني، وأشدّ منه شبهاً باللسان العربي، فكثير من القواعد النحوية والصرفية هي هي في كلا اللسانين.

وقد مرّ اللسان العبري بتطوّرات عنيفة، أهمّها احتكاكهم بالفرس والبابليين والآراميين واليونان والرومان، ممّا سبّب دخول مفردات كثيرة في المعجم العبري من تلك اللغات الأجنبية، وزاد الطين بلّة أنّ العبريين اتّخذوا اللسان الآرامي لسان مخاطبة لهم، بسبب الظروف السياسية التي طرأت عليهم آنذاك.

أمّا عبرية اليهود الآن في أوروبا، فتختلف اختلافاً كبيراً عن العبرية القديمة، سواءً في ذلك القواعد والمفرادت والأصوات.

٤ ـ الآراميون

ويُعتقد أنّ خروجهم من الجزيرة العربية إلى نواحي بلاد الشام حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد؛ أي بعد ألف سنة من هجرة الكنعانيين الذين سبقوهم.

وقد كانت اللغة الآرامية من العنفوان والقوّة، بحيث استطاعت أن تفرض نفسها على جميع أخواتها الشرقية والشمالية، حتى أصبحت لغة التخاطب السائدة في الشرق الأدنى، رغم المقاومة العنيفة التي لقيتها من الآشوريين والكنعانيين وبني إسرائيل.

وفي المرحلة الزمنية المحصورة بين سنة ٣٠٠ ق م وسنة ٦٥٠ ب م كانت الآرامية قد بلغت ذروة مجدها في جميع بلاد العراق، ولم يكن بدّ من أن تتشعّب هذه اللغة إلى لهجات، فشملت المجموعة الشرقية، ومنها اللهجات السائدة في بلاد العراق، وشملت المجموعة الغربية، ومنها اللهجات الآرامية في الشام وسيناء.

٥ ـ الجعزيون

لم تحدّد لنا الأبحاث عن بداية نزوح الجعزيين من بلاد اليمن إلى الحبشة، غير أنّ الثابت أنّهم أسّسوا لهم مُلكاً، عاصمته

أقسوم التاريخية، دام حتى سنة ١٢٧٠ب م.

كـــانت الجعزية شديدة الشبه باللسان السبئي، حتى أنّ بعض المستشـــرقين اعـــتقد أنّ اللسانين لسانٌ واحد، وقد لوحظ أنّ اللسان الجعزي حافظ على عناصر سامية، لم يبق لها أثر في جميع الألسنة السامية الأخرى، فمن ذلك عدم وجود تمييز بين المذكّر والمؤنّث في الأسماء.

٦ ـ الأمحاريون

في حـــوالي القرن الحادي عشر للميلاد ظهر في الحبشة عنصر جديـــد، وأمكـــنه أن يتغلّب على دولة **أقسوم** الجعزية في سنة ١٢٧٠م حيث كوّن لنفسه مملكة جديدة على أنقاض الجعزيين.

ويدعـــي الأمحاريون انحدارهم نسبياً من النبي سليمان وملكة سبأ، لذلك عرفت أسرتها الحاكمة باسم السليمانية؛ وهي الأُسرة التي لا تزال تحكم الحبشة اليوم.

واللســـان الأمحاري هو الذي تحرّر به الحبشة صحفها، وهو اللسان الرسمي للدولة، غير أنّ الجعزية لا تزال تتقلّب في أصلاب بعـــض اللهجات، فمن لهجات الجعزية: التيجرية والتيجرائية، وأهالي هاتين اللهجتين من المسلمين، وكان انتشار الإسلام سببا لمقاومة هاتين اللهجتين للسان الأمحاري، الذي كان رافعاً شعار

المسيحية.

٧ ـ العـرب

العـرب هـم سكّان شبه الجزيرة المعروفة باسمهم، ولا يعلم الـزمن الذي سكن فيه العرب شبه الجزيرة، والظاهر أنّهم كانوا سكّانها الأصليين منذ عصور ما قبل التاريخ.

وأوّل مـا يواجهـنا في تاريخ اللغة العربية التقسيم الكبير: العربية الجنوبية والعربية الشمالية.

أ ـ العـربية الجـنوبية: ويطـلق عليها (اليمنية القديمة) أو (القحطانية)، والنقوش المدوّنة على الصخور والتماثيل والنقود قد هدتنا إلى أنّ العربية الجنوبية تختلف عن العربية الشمالية ـ وهي المقصودة بالعربية عند الإطلاق ـ اختلافاً جوهرياً على المستوى النحوي والدلالي والصوتي.

واللهجات الجنوبية هي المعينية والسبئية والقتبانية والأوسانية والحضـرمية وغيرها، وأشهرها المعينية، وهي لسان مملكة معين، والسبئية وهي لسان مملكة سبأ.

والنقوش تؤكّد أنّ بقاء اللهجة السبئية كانت في بلاد اليمن، حتى في أثناء الحكم الحبشي الأوّل لهذه البلاد بين ٣٧٥ ـ ٤٠٠م

أو بين ٥٢٥ ـ ٥٧٠ م على اختلاف في ذلك.

واللهجات شديد التشابه، فعلى حين تجعل السبئية ضمير المفرد (هاء) كما في الفصحى (كتابه) تجعله المعينيّة سيناً (كتابس)، وتعدي السبئية فعلها الثلاثي بزيادة (الهاء) كـ(هَرَاق) أي أراق، بينما تعدي المعينية بزيادة السين فتقول (سَرَاق).

ب ـ العربية الشمالية: ولا نكاد نعرف شيئا عن نشأتها ومراحلها الأولى، ولكن ما اتّضح للباحثين هو أنّها تاريخيًا مرّت بمرحلتين، قسّمَتْها إلى قسمين:

(الأولى) العربية البائدة: وهي العربية التي تدلّ النقوش على موتها قبيل الإسلام، وهي التي ظهر على آثارها الطابع الآرامي، ولم يتجاوز أقدم ما وصلنا من نقوشها القرن الأوّل قبل الميلاد، وأهمّ اللهجات العربية البائدة ثلاث:

ـ الثمودية: وهي التي ربت في قوم ثمود، الذين ذكرهم القرآن الكريم، وحلّ بهم الدمار لكفرهم، وذكر بعضُهم أنّ مساكنهم كانت في جنوب مكّة إلى تهامة عسير، وذكر آخر أنّهم في جنوب العقبة إلى نواحي ينبع شمالا.

ـ الصفوية: وهي التي سمّيت بذلك، اصطلاحاً من

المستشـــرقين، أطلقوها على النصوص العربية التي لم يعرف عن أقوامها شيء، والتي اكتشفت في الحرّة الواقعة بين جبل الدروز وتـــلول أرض الصـــفاة، واللهجة الصفوية لهجة عربية خالصة، بدليـــل اســـتعمالهم المفـــردات العربية الكثيرة مثل: أسد، لث (ليث)، عزالي (غزال)، إبل، جمل، ضبع، قنفذ، بقر... الخ، لكن نعثر فيها على شوائب آرامية ونبطية، بسبب اختلاط المجتمعات.

ـ اللحيانية: وبنو لحيان بطون من العرب، كانت تسكن في القرن الأوّل الميلادي في شمال الحجاز، بين ينبع وإيلة، إلى نواحي العُـــلى وهضبات خيبر، وقد باد اللحيانيون قبل الثموديين بزمن طويل، والمعلومات عن اللهجة اللحيانية قليلة جدّا؛ لأنّ النقوش الـــتي كتبت لا تزال عصية على التفسير، غير أنّه مما لا ريب فيه أنّها عربية بحتة، ففيها حروف الذال والثاء والضاد والغين، ممّا لا تـــرى في اللســـان الســـامي إلا في العربية، كما عثر على أفعل التفضيل وهاء التنبيه، مما لا وجود له في غير العربية.

ومـــن الـــلهجات الـــتي تذكر ـ هنا ـ ما تسمّى **باللهجة الجاهـــلية**، وهي تسمية اصطلاحية على لهجة عثر على نقوشها بالقرب من منطقة الصفاة، ويرتدّ تاريخ أقدمها إلى سنة ٣٢٨م، وأحدثهـــا إلى ســـنة ٥٦٨م؛ أي إلى قـــرن واحـــد قبل ظهور

الإسلام.

وأهـــمّ هـــذه النقوش ما عُثر عليه في مدفن أمرئ القيس بن عمرو ملك العرب، وقد دوّن هذا النقش في سنة ٣٢٩م، وامرؤ القيس هو أحد ملوك الحيرة والذي انتشر نفوذه في الشام، وفيما يلي كلمات النقش مع ترجمتها بالفصحى في المقاطع الخمسة :

(١) تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب ذو أسر التج.

أي: هذه نفس (قبر) امرئ القيس بن عمرو ملك العرب ذو (وهي الطائية بمعنى الذي) أسر (حاز) التاج .

ونلاحظ هنا أنّ (نفس) بمعنى: قبر، جاءت على وفق اللسان الآرامي، كما أنّ الطريقة الآرامية في النطق والكتابة هو إرداف أسماء الأعلام بواو في النهاية، ومن ذلك (عمرو) التي بقت على نمطهـــا الكتابي حتى هذه الأيّام، لذلك لا معنى لما يقوله اللغويون القدامى، من أن الواو فيها للفرق بين (عُمَر) و(عَمْرو). وسيأتي مزيد بحث عن ذلك في بحث التطوّر اللغوي.

(٢) ومـــلك الاســـدين ونـــزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجا.

أي: ومَـــلَكَ الاسدين ونزاراً وملوكهم، وهرّب (أي هَزَم) مذحجـــا عكـــدي (وهـــذه الكلمة غامضة، ويقول المستشرق

ليتسبرسكي إنّها تدلّ على القوّة، والمعنى: هزم مذحجا بقوّته، ويؤيّـد كلامـه أنّ كلمة تشبهها في لهجة حلب العامية بمعنى الشجاع البطل هي عكيِّد) وجاء .

(٣) بزجي في جبح نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .

أي: (جاء إلى) بزجي في جبح نجران مدينة شَمر ومَلَك معدا ونَزل (أنزل) بنيه .

(٤) الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

أي: نـزل بنيه الشعوب (بمعنى جعل كلّ واحد من بنيه ملكا في شعب) ووكّله الفرس والروم، فلم يبلغ ملكٌ مبلغه .

(٥) عكدي . هلك سنة ٢٢٣يوم ٧ بكسلول.بلسعد ذو ولده .

أي: في الحول والقوّة أو الشجاع البطل هلك سنه ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول (أي كانون الأوّل) ليسعد الذي ولده (أي والده أو الذين خلّفهم)

ونلاحظ هنا أنّ التاريخ المذكور ليس هو الميلادي، وإنّما كان مـبدأ دمار مملكة النبط سنة ١٠٦ميلادية، فيكون هلاك امرئ القيس سنة ٣٢٩م.

(الثانية) العربية الباقية: وهي اللغة الفصحى التي تسمّى أحيانا بالقرشية وأحيانا بالحجازية، وليست التسمية إلا لغلبة خصائص

اللهجة الحجازية فحسب .

وهـــي الّـــتي نزل بها القرآن الكريم، وجاءت بها الأحاديث الشريفه والشعر الجاهلي، وفي التحقيق ليست هذه اللهجة لقبيلة خاصّة، وإنّما هي مزيج لطيف من اختيار أنيق لخصائص لهجات عـــربية كثيرة، أهمّها الحجازية والتميمية، وهناك لهجات عربية أخـــرى مـــثل لهجـــات قبائل طيء وأسد وذهل وهذيل وحمير وغيرهـــم . وسوف نذكر بعض التفاصيل عن اللغة الفصحى في بحث التطور اللغوي.

من اللغة إلى اللغوة (اللهجة)

حدود اللهجة:

هـــي في الاصـــطلاح العلمي الحديث: مجموعة من الصفات الـــلغويه تنتمي إلى بيئة خاصّة، وتشترك في هذه الصفات جميع أفـــراد هـــذه البيئة، وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضمّ عدّة لهجات، لكلّ منها خصائصها، ولكن الظواهر اللغوية الفاصـــلة بينها لا تكون بحدٍّ يمنع اتّصال الأفراد بعضهم ببعض، وتلك البيئة الشاملة التي تتألّف من عدّة لهجات هي اللغة .

ولابـــدّ أن تشترك لهجات اللغة الواحدة في الكثرة الغالبة من الكـــلمات والأسس التي تخضع لها بنية الكلمة، وفوق ذلك في البُنى النحوية، فإذا اختلفت معاني معظم كلماتها واتّخذت أسساً خاصّـــة في بنية الكلمة وقواعد التركيب، لا تسمّى حينئذٍ لهجة، بل لغة مستقلة، وإن ظلّت تتّصل وغيرها بوشائج، تجعلها تنتمي إلى فصيلة واحدة من الفصائل اللغوية .

والفصيلة اللغوية تتألّف من عدّة لغات، ترجع جميعها إلى أرومة واحدة، وقد احتفظت كلّ منها بصفات يسهل على اللغوي إرجاعها إلى ذلك الأصل القديم، والعناصر التي تحتفظ بها لغات الفصيلة الواحدة هي تلك العناصر التي بطبيعتها لا يصيبها إلا قليل من التغيّر رغم مرور الزمن عليها، ورغم تطوّر فروع الفصيلة والواحدة.

وتلك العناصر القديمة تكاد تنحصر في الأمور الآتية:

ـ الضمائر.

ـ الأعداد.

ـ أسماء الإشارة والموصول.

ـ مجموعة الكلمات ذات الدلالات القديمة، كالأرض والسماء، وألقاب الأسرة، كالأب والأم والأخ.

ـ أدوات الربط بين أجزاء الجملة.

ـ الاشتراك الإجمالي في كيفيّة تركيب الجمل.

وأمّا تلك الصفات اللغوية التي تميّز اللهجات، فأكثرها إذا لم يكن كلّها، صفات صوتية يمكن أن تلخّص في الآتي:

ـ اختلاف في مخرج بعض الحروف اللغوية.

ـ اختلاف في وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات.

ـ اختلاف في مقياس بعض أصوات اللين .

ـ تباين في النغمة الموسيقية للكلام .

ـ اختلاف في قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة، حين يتأثّر بعضها ببعض. (في اللهجات العربية ١٩ ـ ٦).

اللهجة في ركام المفاهيم

ليست اللهجة ـ كمصطلح لغوي ـ قادرة أن تحدّد لنا جميع التغيّرات الصوتية، والتغيّرات اللغوية المختلفة، التي تجمع عدّة أفراد في داخلها، لذا ظهرت عدّة مصطلحات تعبّر عن سعة أو ضيق الإطار التواصلي بين أفرادها، فإذا كانت اللهجة، أو اللغوة أو اللغة ـ باصطلاح الأقدمين ـ تحدّد لنا القسم الفرعي داخل اللغة الواحدة، فإن هناك ظواهر لهجية خاصّة داخل اللهجة الواحدة هي :

أ ـ اللحن .

وقد استعمله العرب في عدّه مداليل، هي:

ـ النغمة في المسموعات، ويقال فلان لا يعرف لحن الشعر، أي لا يعرف كيف يغنّيه.

ـ الخطأ في الكلام وهو مشهور .

ـ اللهجة: وفي (الأساس) يقال ليس هذا من لحني، ولا من لحن قومي، أي من نحوي وميلي الذي أميل إليه، وأتكلّم به. ومنه قول أبي ميسرة في قوله تعالى **﴿فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾** قال: العرم: المسنّاة، بلحن اليمن، أي لغتهم.

ـ الرمز والإشارة التي يفهمها اللبيب: وفسّر به قوله تعالى **﴿وَلَتعرفنَّهم في لحن القول﴾** أي فحواه، وما يشار إليه فيه.

واللحن عند اللغويين ـ كاصطلاح ـ هو قسم أو فرع صغير من فروع اللهجة، يختصّ بإقليم معيّن أو قبيلة، فاللهجة المصرية ـ مثلا ـ لهجة واسعة الحدود، أما نطق الاسكندرية أو القاهرة فلحن، ويسمّى أيضا (اللغيّة) تصغير لغة. (اللسان والإنسان ١٢٥).

ب ـ اللهجة الطبقية:

وتتحدّث عنها الاستاذة مرجريت؛ فتقول: **إنّ اختلاف أي لغة وطنية وفقا للمستويات الاجتماعية يسمى اللهجة الطبقية، وربّما يكون في داخل اللهجة الطبقية اختلاف وأقسام صغيرة**..الخ، فنرى المثقّفين يتداولون طريقة خاصّة في الكلام، كما أنّنا نكتشف من كلام الفلاح ولهجته مهنته، ونكتشف من طريقة كلام الشخص أنّه من التجار، كلّ ذلك يُسمّى اللهجة

الطـــبقية، إذن هـــي الخصوصيّات اللغوية التي تعبّر عن الطبقة الإجتماعية داخل المجتمع الذي يتعاطى لحناً معيّنا. (مقدّمة لدراسة فقه اللغة ٩٣).

ج ـ اللهجة الفردية :

وهـــي كيفية استعمال الفرد للغته ولهجته، استعمالاً يتميّز به عن غيره. (معجم المصطلحات ٣٢).

فكـــثيراً ما نكتشف الشخص المتكلّم قبل أن نراه، عن طريق حديثه، كما نكتشف أنّ فلانا يقلّد الآخر في طرية كلامه، وما ذاك إلا لأنّـــنا نحـــسّ بـــالفوارق الشخصية في استعمال اللغة والـــلهجة، وهذه المميّزات هي ما أطلق عليه علماء اللغة اللهجة الفردية .

د ـ اللكنة :

وهـــي عيـــب من عيوب النطق يتميّز بها الشخص عن سائر الذين يتكلّمون معه اللهجة، وسببها عجزٌ في اللسان، وذلك بأنّ يستبدل حرفاً مكان آخر، كتحويل السين شينا أو الشين سيناً، أو تأنيث المذكّر أو تذكير المؤنّث، أو غير ذلك. (المعجم المفصّل ١/٥٢٧).

كيف تتكوّن اللهجات

لم تكن اللهجة لتخرج من رحم العدم إلى ساحة الوجود، من دون خضوع لنظم وقوانين تحكم الظواهر اللغوية العامّة، فاللغة ـ وفي ضمنها اللهجة ـ كائن حيٌّ ينمو نمواً طبيعياً في الظروف الطبيعية، ويتأثّر سلوك نموّه عندما يتعرّض لظروف قاهرة عرضية، فإذا تساءلنا عن الأسباب التي تتمخّض عنها اللهجات، كان الجواب بالتالي :

أسباب جغرافية :

وتتمثّل فيما إذا كان أصحاب اللغة يعيشون في بيئة جغرافية تختلف فيها الطبيعة من مكان لآخر؛ كأن توجد جبال أو وديان تفصل بقعة عن أخرى، بحيث ينشأ من ذلك انعزال مجموعة من الناس عن مجموعة أخرى، فإنّ ذلك يؤدّي تدريجيّا إلى تكريس الخصائص اللهجية الشخصية عند الأجيال المتأخّرة، فتحدث لهجات لها مميّزاتها العامّة .

أسباب اجتماعية :

سبق أن ذكرنا مصطلح (اللهجة الطبقية) أو العامية الخاصّة

ـ حسب فندريس ـ فلنستعيد مفهومه؛ ليكون أحد الأسباب التي تشكّل لنا لهجة أخرى، فالطبقة الأرستقراطية ـ مثلاً ـ تتّخذ لهجة غير لهجة الطبقة الوسطى أو الدنيا في المجتمع، وهذه العامية الخاصّة تتطوّر حينا بعد حين، فتصل إلى أجيال لاحقة كواقع مفروض، وربّما كانت من قبل مختلقة لإبراز التميّز أو الهيمنة على طبقة اجتماعية تحت سقف خاصّ.

أسباب فردية:

من الحقائق المقرّرة أنّ اللغة ـ كما يقول فندريس ـ: **واحدة ومتعدّدة، بعدد الأفراد الذين يتكلّمون بها، ومن المسلّم أنّه لا يتكلّم شخصان بصورة واحدة لا تفترق) والاختلاف الفردي في النطق يؤدّي مع الزمن إلى تطوّر اللهجة أو إلى لهجة أخرى، بل إنّ سابير يذهب إلى أنّ اللهجة تنشأ من (الميل العام إلى الاختلاف الفردي في الكلام).**

ويمكن أن يلحق بهذا أيضا ما يسمّى (بخطأ القياس) فنحن نلحظ أنّ بعض الأطفال يقول (أحمرة وأخضرة) في تأنيث (أحمر وأخضر) فلو قدّر لهؤلاء الأطفال أن يعيشوا في بيئة معزولة عمن يقوّم لهم ألسنتهم، كأن يكون آباؤهم مشغولين في طلب الرزق، أصبحت هذه الأخطاء بعد فترة زمنية عادة لهجية، ولعلّ ما يمكن

أن يصلح أن نضعه مثالا على هذه الظاهرة، ما روي من أنّه لهجة تميم تبني اسم المفعول من الأجوف على مفعول، فيقولون (مبيوع ومديون) قياسا على الفعل الصحيح بدلا من قوله (مبيع ومدين). (اللهجات العربية في القراءات القرآنية –الراجحي ٢٢).

الصراع اللغوي نتيجة غزو أو هجرات :

فقد يغزو شعب من الشعوب أرضاً يتكلّم أهلها بلغة أو لهجة خاصّة، فيقوم صراع عنيفٌ بين اللغتين الغازية والمغزوّة، والنتيجة عادة إمّا القضاء على إحدى اللغتين قضاءً تامّاً، أو ينشأ من هذا الصراع لغة مشتقة من مزيج اللغتين، تشتمل على عناصر من هذه وأخرى من تلك.

وقد حدّثنا التأريخ عن صراع العربية والآرامية في العراق والشام، وانتهى فصل الصراع بغلبة العربية، كما صَرَعَت القبطية في مصر، والبربرية في بلاد المغرب، والفارسية في بعض بقاع مملكة فارس القديمة. وكذلك يكون الصراع بين اللهجات. (اللهجات العربية في القراءات القرآنية، الراجحي ٢٣).

الدعوة إلى العاميّة..
الـــدراسة أم التـــواصـــل ؟

اتّخذت المجادلات حول الدعوة إلى العاميّة أو الفصحى مساراً أيديولوجيـــاً بالدرجة الأولى، وقوميّا بالدرجة الثانية، فقد اعتبر البعض أنّ الدعوة إلى العامية استدراج للقضاء على لغة القرآن، وبالتالي القضاء على الرافد الأكبر للإيديولوجية الإسلامية، كما اعتـــبر الـــبعض أنّ الدعوة نفسها استدراج لتفتيت الأمّة العربية بمحو العنصر المشترك بينها وهو اللغة الفصحى.

والواقـــع أن الجدل حول الدعوة إلى العامية لم يكن متمركزاً على نقطة واحدة؛ لذا سقط الكثير في الهوّة بين الإفراط والتفريط.

فالحملة التي تدعو للعامية ـ كنظام تواصلي ثقافي ـ لم نتأكّد من حسن نيّتها، خصوصا تلك الدعوات التى أطلقها الاستعمار الـــبريطاني في مصر، فالدعوة إلى العامية بدأت بشكل مركّز منذ عـــام ١٨٨٠م على يد مجموعات من الإنكليز والفرنسيين، ففي

مصـــر العربية دعا إلى العامية وهجر الكتابة بالفصحى مهندس الريّ البريطاني **وليام ولكوكس** في محاضراته المشهورة التي نشرت في مجلّة الأزهر عام ١٨٩٣م، وظلّت هذه الدعوة تتجدّد من حين لآخـــر، وأشـــهرها دعـــوة القاضي **ديلمور** أبناء مصر للكتابة بالعاميـــة، وإعلانهـــا لغة رسمية في مصر، مع كتابتها بالحروف اللاتينية عام ١٩٠١م.

وقد سقط فريسة لهذه الدعوة بعض العرب، من أمثال لطفي السيد، وسلامة موسى. (سلامة اللغة العربية، عبد العزيز عبد الله محمد ١٥٤).

ومن هنا يمكننا أن نؤسّس تاريخ ظهور الدعوة إلى العامية في الممارسات الثقافية، بمجيء الاستعمار ورجاله في الوطن العربي في عام ١٢٨٥هـ ـ / ١٨٦٨م على نحو التقريب، وذلك من خلال ملاحظـــات ودراسات لبعض المستشرقين. (مجلّة الحرس الوطني العدد ١٨٧ / العاميّة بين الفكر والرفض، محمّد الشقحاء).

وحينما نقول: لم يتّضح حسن نية هذه الصيحات، فلأنّا نرى أنّ الأهـــداف التي تمثّل خلفية هذه الشعارات يمكن رصدها في أمرين:

١ ـ **إرساء العامية لتكون لغة الثقافة والأدب**، بحجّة عصرنة

الـــثقافة وتجاوز الظواهر التراثية، وهذا الشعار لم يكن رصيناً من الـــناحيه العملية، حيث تعتبر ازدواجية اللغة، أي ثنائية الفصيح والعـــامي، ظاهـــرة مـــتجذّرة في الـــتكوين اللغوي والتواصلي للشعوب، وخصوصاً الشعوب ذات الثقافة، بحيث ترتكز عملية التواصـــل اليومي على التفرّع اللهجي، وترتكز عملية التواصل الثقافي والأدبي على اللغة الراقية الفصيحة، وليس بمقدور أحـــد أن يمحو هذه الثنائية، إلا إذا كان بمقدوره أن يمحو كلّ السياق الحضـــاري المكـــتوب بالفصـــحى، الذي شكل التراكم المعرفي والذهني لدى الأفراد.

ومـــن الموضـــوعية والمفترض أن يحمل أصحاب الشعارات المـــتمرّدة شعاراً بتطوير الفصحى، وإكسابها مرونة لتسهل عملية الـــتلاقح اللغوي، تماشيا مع عملية التلاقح الفكري اللامحدود في زمن التدفّق الإعلامي والمعرفي.

ومن المناسب جدّا أن نذكر أنّ الدراسات اللغوية السوسيولوجية تؤكّـــد عـــلى انحفـــاظ هـــذه الثنائية أو الازدواجية كظاهرة سوســـيولوجية مســـلّمة لا يمكن الفرار منها، وقد اعتبر افتراض التنوّع اللهجي ناتجا طبيعيا من القرب أو البعد للمعيار الذي هو الـــلغة المشـــتركة، فمتى ما فرض تنوّع لهجيّ فقد فرض معيارٌ

وقـــاعدة وهـــي اللغة الفصحى، وقد ذكر **بيار أشار** في كتاب (سوسيولوجيا اللغة) ذلك بقوله :

إنّ مـــا يميّز حالة ازدواجية اللغة هو أنّ أعضاء الجماعة قادرون على استخدام ما يسمّيه (والْد) الخيارين المعرفيين :

ـ إمّـــا أن نعتبر اللغة الفصحى كبديل للتنوّع اللغوي، وترمز هذه الحالة إلى المثال المعياري للتنوّعات .

ـ وإمّـــا أن نعتبر الفصحى والتنوّعات كلغات مختلفة، وهذا ما يطرح مسألة رسم حدودها .

وتمثل اللغة الفصحى، في حالة ازدواجية اللغة، نموذجاً للمعيار الذي يستخدم كقاعدة لتقييم الأهمية المعطاة والمسافة المقدرة لكلّ ممارسة لغوية تنتمي إلى نواة مشتركة. (سوسيولوجيا اللغة ٥٠).

٢ ـ **لتنـــنة الكتابة :** واعتبار الحرف اللاتيني حرفاً عالمياً، كما اعتبرت اللغة الانكليزية هي اللغة العالمية، و لم تنجح هذه الدعوة لتـــثير جـــدلاً علمياً، فضلاً عن أن تلقى قبولاً في الوسط الثقافي والفكري .

ولنا عليها ملاحظتان علميتان، يتّضح خلالهما ضعف الرصيد الفكري لأصحاب هذه الدعوة :

فـــأولى الملاحظـــتين : أنّ الكـــتابة تعدّ رموزاً حاكية عن

الأصـــوات، وكـــلّ رمزٍ كتابي يعبّر عن فونيم واحد ـ ونقصد بالفونيم: الوحدة الصوتية الأصغر، التي تتبدّل الوظيفة الصوتية، في أدائهـــا للمعنى، باستبدالها بوحدة أخرى ـ وبما أنّ لكلّ لغة فونـــيمات خاصّة بها، فينتج عن ذلك رموز كتابية خاصّة بنفس الـــلغة، أي تكون سعة الرموز الكتابية بسعة الفونيمات الصوتية لـــلغة، فإذا أخذنا الحرف (ظ) في اللغة العربية لا نجد له مقابلاً كـــتابيا في الـــرموز اللاتينية، إلا بتفريغ شكل لا تبني عن محتواه الصـــوتي المعروف، وهذا رجوع للبدائية الكتابية، حيث يؤدّي الشكل الواحد عدّة وظائف فونولوجية، بسبب الفقر في الرموز الكـــتابية، والأمـــر نفسه لو أخذنا الحرفان (p) و (B) في اللغة الانجليزية، حيث نراهما يعبّران عن فونيمين مختـــلفين، وهذا ممّا لا نـــراه في اللغة العربية، إذ أن الحرف (ب) يعدّ فونيما واحدا حتى وإن اختلفت صفاته الصوتية في بعض الكلمات مثل (بَطَر) و(بَيْت)، ومن هنا لا يمكن للغة أنّ تستعير النظام الكتابي من لغة أخـــرى إلا بتحمّل القصور في نتائج التعبير الصوتي، أو الرجوع إلى البدائية اللغوية، بتفريغ الرموز من محتواها الصوتي .

والملاحظة الأخرى : أنّ الشكل الكتابي في أي لغة، لا يقلّ شأنا عن نفس الصوت اللغوي من ناحية اكتنازه للطاقة الحضارية

التي اكتسبها خلال المسيرة الزمنية والتاريخية، فالإنسان العربي إذا سمع لفظ (المرأة) تستثار في ذهنه ظلال تاريخية واجتماعية يحملها اللفظ في داخله، بمستوى لا نراه متوفّرا لو سمع الشخص نفسه لفظ (زَنْ) الفارسية ـ بمعنى المرأة ـ وكذلك الأمر لو سقطعت عيناه على الشكل الكتابي للفظ المرأة بتقنيته العربية، وأمّا لو استخدمت الرموز اللاتينية في كتابة لفظ (المرأة) فسيفقد القارئ الكثير من ظلال المعنى، والملامح الحضارية التي يحملها المكتوب.

وأمّا الحملة التي تتّخذ الفصحى شعاراً لدعوتها، لم تنجُ أكثرها من التطرّف أيضا، وقد اتخذت أشكالا مختلفة وطروحات متنوعة، تصبّ كلّها في مصبّ واحد، هو الدفاع عن العربية وأصالتها، ويمكن تلخيص بعض التوجّهات، وهي أهمّها:

(١) يرى البعض وجوب تقويم اللهجات العربية، باعتبار مبدأين: إقرار كلّ ما يمكن من الألفاظ ثمّ صوغ كلّ لفظ عامّي حسب صيغه تكون أقرب ما يمكن من الفصحى.

(٢) ويرى البعض رأيا أقل حدّة من السابق وهو استعمال عامية مهذّبة ومؤالفة، أمّا التهذيب فيعتمد على ترسيخ الكلمات العربية، وطرد ما هو غريب من المصطلحات الأجنبية، وأمّا التوليف فيعتمد على اختيار ما هو أنسب للعامّة، ومثال ذلك أنّنا

لو وازنّا بين لفظي (الصنبور) و(حنفية الماء) لابدّ أن نختار ما هو أسهل تداولا وفهما، وبالتالي يستحسن اختيار (عقرب الساعة) على المصطلح المشتقّ (المشير).

ونلاحظ على كلا الرأيين أنّهما تجاهلا السنن اللغوية والتاريخية على المستوى اللهجي؛ إذ أنّ عملية التهذيب أو التقويم أو التطوير في اللهجة لن تكون أبدا تحت سلطة أحدٍ من الناس ـ حتى ولو كان باسم المجمع اللغوي ـ إذ التغيّرات الطارئة على الظواهر الصوتية وليدة عملية التعرية اللفظية، أو النمو أو التشذيب العضوي الذي توارد على الكلمات والأنظمة اللغوية، والصوتية بالأخص، وذلك منذ نشوء اللسان العربي حتى يومنا هذا، فاللهجات لن تعطي نفسها للمجمع اللغوي ليهذبها أو يقلّمها لأنّها لا تزال تحت سلطة التاريخ والزمن.

والذي لا يمكن نكرانه أنّ العمليات الإجرائية التطويرية يمكن أن تقع تحت سلطة الإنسان بالنسبة للّغة الفصحى؛ لأنّها لغة الثقافة والأدب، والتي يستعملها الناس في حالة واعية، ذات نزوع للتصحيح والتصويب، ومن هنا نفرّق بين تهذيب العامية وتقويمها، وبين تصفية الفصحى من العامية وتطويرها، فالأُولى ليست تحت سلطة المجامع اللغوية، أو داخل إطار إرادة اللغويين،

بينما الثانية تقع في أيديهم رقعة كبيرة منها، قابلة لذلك.

(٣) ويرى البعض ـ بإصرار ـ ضرورة ترسيخ الحالة الفصيحة في العالم العربي، غير أنّه يتنازل عن ظاهرة الإعراب، التي لن تتيسّر للناس في الوقت الحالي، لتوقّفها على دراسة وافية للأنظمة التركيبية، فالشعار ـ باختصار ـ لغة فصيحة بدون إعراب.

(٤) كما يرى آخرون أن يُدعى العالم العربي للتكلّم بلغة القرآن، وترك اللهجة، والتخلّص منها شيئا فشيئا، وأنّ العودة للعربية هي العودة للأصالة والرجوع للهوية، بل وحتى الدين، فنرى مصطفى صادق الرافعي يتضجّر على حال اللغة العربية بقوله: **كانت العامية لحنا في اللغة فأمست لغة في اللحن.** (سلامة اللغة العربية ١٤٧). وكذلك رافائيل بطي يقول: **وعلماء الغرب والمستشرقون هم أوّل من بذروا فكرة العامية، إذ أنّ تنفيذ هذه الفكرة يفتُّ في عضد الوحدة العربية، ويباعد بين الأقطار العربية؛ إذ يصبح بعد زمن لكلّ قطر لسان.** (سلامة اللغة العربية١٥٥)

وبنظرة ناقدة نرى أنّ المقاييس العلمية ترفض هذا الطرح رفضاً تامّاً، رغم ما يستبطن من غيرة على اللغة والدين؛ لأنّ اللهجات ليست وليدة الانتكاسات السياسية الحديثة، التي أصبحت قدرا مرّا على العالم العربي والإسلامي، وإنّما هي

ولدت بُعيد ولادة اللغة العربية، ويؤكّد إبراهيم أنيس هذه الحقيقه بقوله.. **انعزال القبائل العربية [في الجزيرة العربية] واستمساكهم بنظمهم وتقاليدهم قد أدّى إلى نشأة اللهجات العربية القديمة التي روي لنا طرف منها في كتب الأدب واللغة والتاريخ، ورغم اشتراك القبائل في بعض النظم الاجتماعية قد دعت تقاليدهم الخاصّة وبيئتهم الجغرافية الخاصّة إلى تطوّر مستقل في لهجاتها، وكانت نتيجه تلك الصفات الخاصّه التي نلحظها في لهجة كلّ قبيلة... فاللهجات العربية القديمة هي نتيجة انعزال القبائل أوّلاً، ونتيجة التطوّر المستقل لكلام كلّ قبيلة ثانياً..** (في اللهجات العربية ٢٣).

وبعد ذلك ليست اللهجات عيبا حتى تجب مكافحته، وليست لحناً ـ حسب الرافعي ـ ليجب تصحيحه، بل هي ظواهر لغوية لا يخلو منها أي لسان من الألسنة العالمية.

وإن كان ذلك خوفاً على الحالة الوحدوية أو الدينية، فإنّ كيانا قد عبر عباب التاريخ طيلة أربعة عشر قرنا، رغم ترامي أطرافه، فإنّه قادر على الصمود تجاه الرياح العاتية من هنا وهناك، وجميع التقلّبات المناخية.

ومن بين هذه الحملات الرافعة شعار الفصحى، وتلك الرافعة

شـــعار العامية، تبرز بعض التوجّهات تدّعي في نفسها الوسطية والحيـــاد، حيث يري أصحابها توحيد النطق بالحروف العربية، ومكافحة اختلاف اللهجات التي نشأت من تآلف المتكلّمين مع مـــناخاتهم، ومـــن تهاون النحاة بإدارج علم الأصوات في علم النحو، وبالتالي تكون الدعوة إلى لهجة مثالية .

وقـــد رجّـــح البعض أن تكون اللهجة التونسية هي اللهجة المشـــتركة؛ لاقترابها إلى الفصحى في أصواتها، كما رجّح البعض الآخر أن تكون المصرية؛ لمكانتها وأناقتها، ورواجها في السينما والتلفزيون .

وبالتأكيد لن يمرّ هذا الرأي من دون اعتراض، إذ لاشكّ أنّ اللهجة المثالية التي ستكون هي النظام التواصلي العام بين البيئات العربية لن تصمد على مثاليّتها ووحدتها أكثر من بضع سنين، فما دامـــت النواميس الزمنية والاجتماعية، التي تولّد اللهجات، على قيد الحياة، فلن تبقى مثالية أبداً، وأنّ الجهود التي ستبذل لتكوينها ســـتتبخّر، عـــندما ترى بعد سنوات قليلة أنّ اللهجة المثالية قد انقسمت إلى لهجات، بعدد البيئات العربية .

الدعوة الى دراسة اللهجة

مـــن الطبيعي جدّا أن تفرز الصراعات، التي دارت بين دعاة العامّية ودعاة الفصحى، اضطراباً في الرؤية الموضوعية وتشنّجاً في الطـــرح العـــلمي، ومن تلك التشنّجات التي طفت فوق سطح الصراع فكرة رفض دراسة اللهجة، وكان ذلك امتداداً من الرؤية السلبية، حول اتّخاذ اللهجة أداة تواصل.

إذن تحوّلت النظرة لدى البعض من رفض التواصل إلى روض الدارسة .

ورغـــم تواتر الدراسات اللهجية المنهجية بين علماء الغرب، وبعـــض الانجازات العربية في هذا المجال، إلا أنّنا نرى صعوبة في تكـــريس فكرة الدراسة المنهجية للهجات، إلى حدّ القناعة لدى شـــريحة واسعة من الدارسين، خصوصا أولئك الذين استلهموا الحالة التراثية في وجدانهم سنوات طويلة، وانطبعت ذاكرتهم على تفصيح الجوّ العام، ومن الغريب أن نرى بعض المجمعيّين، كعلي

الجـــارم، وأحمـــد الاسكندري، وأحمد العوامري، يحملون رأياً مـــتحفّظاً تجـــاه الدراسات اللهجية، إلى حدّ حصلت مهاترات عنيفـــة داخل المجمع بين المؤيّدين والمعارضين .

وسوف نتعرّف على المناهج المختلفة، التي تمّ اقتراحها لدراسة اللهجات من خلال ما نستعرضه في هذه النقاط :

١ ـ يرى البعض أنّ الدراسة المنهجية للّهجات يجب أن يكون بإرجـــاع العامي إلى الفصيح، ومحاولة المقارنة بين طرفي الثنائية اللغوية عبر محو المسافة التي شطح فيها اللفظ وانفلت من مركزية اللغة الراقية .

وهـــذا المنهج لا ننكر عليه عطاءه وثماره المعرفية، وإنّما ننكر عـــليه محدوديّته؛ لأنّه لن يسلّط أدواته إلا على المستوى الدلالي والمعجمـــي لـــلّهجة، في حين تمتلك اللهجات تمام الأنظمة التي تمتـــلكها الـــلغة الفصيحة . كما ننكر عليه تهيّبه من قطع الحبل الســـرّي بين اللهجة واللغة الفصحى، فإنّ دراسة النظام الدلالي لـــلّهجات ليس منحصراً في إرجاعها للفصحى، ومقايستها مع الأنظمة الراقية، بل هناك مناهج أخرى تتبيّن فيما يأتي .

٢ ـ ويتقدّم الآخر بخطوة للأمام؛ ليقترح منهجا جديداً، هو المعجـــم الـــلهجي، الذي يهدف ـ أوّلاً ـ إلى جمع المادّة الخام

للهجات الأقطار المختلفة؛ لتتحوّل إلى تراكم صالح لأي دراسة، و ـ ثانيـاً ـ إلى تفسير اللفظ اللهجي، وبيان اشتقاقه، وطريقة نطقه، وما طرأ عليه من التغيّرات وعوامل التعرية، ولعلّ من أهمّ المحـاولات التطـبيقية لهـذا المنهج محاولة أحمد تيمور باشا في اللهجات المصرية. (أعمال المجمع ٢٦٧).

وهـذا المنهج بمحاولاته التطبيقيّة، وإن تقدّم بعض الخطى عن سـابقه، إلا أنّ المأخذ عليه يكمن في سقوط أكثر المحاولات في شـباك إرجاع العامي إلى الفصيح، الأمر الذي يجعل الاختلاف بين هذا المنهج والمنهج السابق، في قدرٍ كبيرٍ، شكليّا ليس إلاّ.

٣ ـ ويذهـب آخـرون إلى دراسة اللهجات دراسة علمية صحيحة تتمّ عبر رصد الظواهر اللهجية، ولو بتسجيلها تسجيلا صـوتيا؛ للـتعرّف على ما تتّصف به كلّ لهجة بدقّة ووضوح، ويُستهدف من ذلك أمران:

الأوّل: وصـفها وصفا تحليليّاً من النواحي الصوتية والعرفية والدلاليـة . . الخ، ونكـون بذلك قد خدمنا غرضاً جليلاً هو الكشـف عـن مرحلة تاريخية من الحياة اللفظية واللغوية لدى المجتمع المدروس.

الـثاني: تمـتدّ البحوث من الوصف التحليلي إلى البحث

المقارن بين اللهجة المدروسة بينهما. (اللهجات العربية ١٤).

وهذا المنهج هو أقرب المناهج للموضوعية، التي تعني أن تكون اللهجة موضوعة الدراسة، لا أن نجعلها هامشاً على دراسة الفصحى، ولذلك شاع هذا المنهج في الجامعات الأوربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، حتى أصبح حقلا من أهمّ حقول علم اللغة الحديث.

والفجوة الوحيدة التي ابتلي بها هذا المنهج هو الإقليمية في التعامل العلمي، بمعنى صلاحيّته لدراسة لهجة معيّنة، ولا يمكنه أن يعطينا تصوّرا عامّا أوسع، عن إقليم لهجة واحدة أو ما جاورها من اللهجات، ولذلك بزغ الاتّجاه الرابع لسدّ هذا الخلل المفروض.

٤ ـ وهذا المنهج يطمح للوصول إلى جغرافية لهجية، ونقصد بذلك القيام بتوزيع اللهجات في خرائط لغوية خاصّة، تتمثّل أخيراً في أطلس عام شامل للهجات لغة معيّنه. وكان اللساني الألماني **جورج فنكر G.Wenker** أوّل من قام بوضع أطلس لغوي، وقد درس فيه التفرّعات اللهجية في ألمانيا، وكان ذلك سنة ١٨٧٦م ثمّ تبعه الأطلس الفرنسي، بإشراف **جييرون Jeyerun** سنة ١٩٠٢م، والأطلس الإيطالي بإشراف **يابرج**

K.yaberj ويـــود jud ســـنة ١٩٢٥م، والأطلس الأمريكي لـــــ نيو انجلاند N.England سنة ١٩٣٩م. وتتابعت بعد ذلـــك الأطـــالس في هولندا واسبانيا وانجلترا وسائر أقطار أوربا ومقاطعاتها ولا تزال.

وأمّـــا الطـــبيعة المـــنهجية للجغرافية اللهجية، فهي تتمثّل في مظهرين: **مظهر تسجيلي** غايته جمع المادّة وتوزيعها على الخرائط الميدانيـــة، ورسم الخطوط التوزيعية الفاصلة والواصلة بين النقاط الســـكّانية التي يشملها الميدان المدروس، وأشهر خطوط التوزيع المستخدمة في الجغرافية اللغوية: خط التوزيع الصوتي **Isophoni**، وخـــط التوزيع الصرفي **Ismarphic**، وخط التوزيع النحوي ـ أي النظمي بمصطلح عبد القاهر الجرجاني ـ **Isosyntactic**، وخـــط الـــتوزيع التنغيمي **Isotonic**، وخط التوزيع الدلالي. **Isosemic**

ومظهـــر تحليـــلي غايته تأمّل المادّة المجموعة بعد تسجيلها، واستنطاق خطوط التوزيع لاستكناه دلالتها، وتشخيص الفروق والتنوّعات اللهجية، وتمييز الكيانات اللهجية. (عالم الفكر، آفاق الأسلوبية المعاصرة، من الجغرافية اللغوية إلى الجغرافية الأسلوبية، سعد مصلوح ص ١٦).

ولا شـــكّ أنّ المظهـــر التحليلي سيفرز لنا نتائج، يمكنها أن تُشـــكِّل على هيئة قوانين تحكم عالم التنوّع اللهجي، الأمر الذي يجعلـــنا نستشـــرف المســـتقبل اللغوي للتنوّعات اللهجية، من انقسامات وتحوّلات وغير ذلك، ولذا اعتبر هذا المنهج الدراسي أرقـــى المـــناهج لدراسة اللهجة ككائن حي تتواتر عليه القوانين التاريخية كأي كيان خاضع تحت سلطتها.

من الزمنية الشفاهية
الى الزمنية الكتابية

غير جديد أن نقول إنّ الكتابة تمثيل للّغة المحكية الطبيعيّة، بعلامات خطّية منقوشة، ففي البدء لَفَظَ الإنسان علامات صوتية، ثمّ عمد لاحقا إلى تمثيلها ضمن منظومة علامات، وهذه الأخيرة إن هي إلا رامزة تواصل من الدرجة الثانية، في حين أنّ الكلام يشكّل رامزة تواصل من الدرجة الأولى.

والفارق الجوهري بين الرامزتين أنّ الكلام يجري مع الزمن ـ أي يتزمّن ـ ثمّ ينتهي بانتهاء دورته، أمّا الكتابة فإنّها تحدث وتتمّ في الفضاء، وذلك لوجود حامل فضائي مادّي يعمل على حفظها من لوح أو ورق ... الخ. (مدخل إلى الألسنية٢٢).

وقد قُسّمت الأدوار الحضارية للإنسان إلى قسمين: **عصور ما قبل التاريخ**، وهي العصور المتطاولة التي لم يهتد فيها الإنسان إلى إنشاء الحضارة واكتشاف وسيلة للتدوين، **والعصور التاريخية**،

وهـــي العصـــور التي اتّخذ الإنسان فيها وسيلة لتدوين أفكاره ومشاعره، ولا شكّ أنّ حدث اختراع الكتابة له الشأن أن يقسّم الحضارة الإنسانية.

والحقيقية الاركيولوجية تؤكّد أنّ أقدم ظهور لنظام الكتابة في تاريخ الإنسان كان في حدود (٣٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ق م).

وأمّـــا بداية عصور ما قبل التاريخ، فلا يمكن تحديده بالسنين على وجه التأكيد، فإنّها بدأت منذ ظهور الأنواع البشرية القديمة البائدة قبل نحو مليوني عام، وبذلك تكون عصور ما قبل التاريخ قـــد اســـتغرقت القسم الأعظم من حياة الإنسان؛ لأنّه يتعدّى الـــ ٩٩%.(موجز في تاريخ العلوم ١١).

ومـــن الواضـــح أنّ الـــتطوّر الشفاهي يسبق التطورّ الكتابي بمســـافات بعيدة، لذلك نرى نماذج كثيرة من أمم كانت تتكلّم لغـــة، وتكتب بلغة أخرى، قبل أن تبلغ هذه الأمم القدرة على صـــياغة لغاتها صياغة تدوينية، فالأكديون في بعض فتراتهم كانوا يكتبون باللغة البابلية، والسريانوين يكتبون الأكدية، والأوربيون يكتبون باللاتينيّة.

وكـــان امـــتلاك الكـــتابة في كلّ قطر من الأقطار يعدّ تغيّراً حضارياً لا يُنسى، ومن الطريف ما يذكره (لوروا ـ الأوبري):

في المنتايو (قرية أوكستانية) كان في القرن الرابع عشر يعادل سعر الكتاب لمن شراء بيت. (سوسيولوجيا اللغة ٤٢).

وما يهمّنا في البحث عن الكتابة، هو أن نرصد الأدوار التي نمت فيها الكتابة، واتّخذت أشكالا مختلفة:

أدوار الكتابة

الأولى: الكتابة التصويرية: وهي أقدم طرق التعبير البصري عن الكلام المسموع، وفيها يكتفي الكاتب برسم مدلول اللفظة، ويتابعها بما يليها من الكلمات رسمياً. . وهكذا، فالرجل يعبّر عنه بصورة رجل، والتضرّع يعبّر عنه بصورة يدٍ ترتفع، والأكل يعبّر عنه بيد تمتد إلى الفم، والماء يرمز إليه بأمواج متتابعة، وقد اتّخذت الكتابة التصويرية أطوارا مختلفة:

أ ـ **شبه الكتابة**: وهي رغم كونها كتابة، إلا أنّها تسمى شبه الكتابة لكونها في الأطوار البدائية، وكان تاريخ ظهورها (٢٨٠٠ ـ ٣٥٠٠ق م)، وسمي بها ذلك العصر (الشبيه بالتاريخي proto-historic)، وكانت الصور التدوينية فيه صوراً بدائية تحاول مطابقة الواقع الخارجي، ولا شك أن هذا النوع الكتابي لم يتسع لتدوين الشؤون الحياتية. (موجز في تاريخ العلوم ١٤).

ب ـ الكتابة الهيروغليفية: وكلمة (هيروغليفي Hieroglyphic) كلمة يونانية مركّبة من كلمتين، تعني النقش المقدّس، ولعلّه بدأ تدويناً للنصوص المقدّسة، ثمّ امتدّ إلى أشكال الحياة الأخرى، او لفتنة الناس به وتقديسهم له، وقد بدأ هذا النوع التدويني منذ نحو: (١٠٠ ـ ٢٩٠٠سنة ق م) وتمثّل الكتابة الهيروغليفية حالة متطوّرة من شبه الكتابة، حيث تطوّرت الرموز نحو التبسيط والتوحيد، وزوّدت بإشارات بصرية لإضافة مزيد من تحديد المعنى، وكثير من هذه الإشارات وظيفتها نحوية أو صرفية، كالإشارات التي تبيّن المذكّر من المؤنث والمفرد من الجمع.

وقد كانت الكتابة الهيروغليفية أداة تدوين عند المصريين الفراعنة، والحيثيين، وآسيا الصغرى، والشومريين بداية تاريخهم.

ج ـ الكتابة الهيراطيقية: Hiratic أي خطّ الكهنة، وهي كتابة متطوّرة عن الكتابة الهيروغليفية تميل إلى تبسيط الصورة واختزالها أكثر، وإعطائها رمزية بدلاً من المحاكاة والمطابقة، وقد اختصّت بتداولها الكهنة لتدوين طقوسهم الكهنوتية وأسرارهم، لذلك أنّ فمن المحتمل أنّ بقية الناس في ذلك العصر لا يعرفون فكّ الشفرات الهيراطيقية؛ لأنّها كتابة طبقية هدفها الترميز

والتلغيز .

د ـ الكتابة الديموطيقية: Dimatic وهو الشكل الذي تطوّر عـــن الشكل الهيروغليفي، إلاأنّ استعماله كان بالدرجة الأولى لتدوين الحياة الاعتيادية، وقد كانت بدايته منذ القرن العاشر قبل الميلاد. (موجز في تاريخ العلوم ١٠١).

ولأنّ هـــذا النمط الكتابي كان شعبيا، فقد استمرّ طويلاً في عـــدّة حضـــارات، أهمّهـــا الحضارة المصرية، فقد ظلّت الكتابة الديموطيقية عند المصريين تُصارع الزمن، من حوالي سنة (٦٦٠ق م) الى حوالي (٤٧٠ب م) وهي فترة طويلة تزيد على الألف سنة. (اللسان والإنسان ١٧٠).

وهذه الكتابة التصويرية بجيمع أشكالها ـ حسب تودوروف ـ تعـــدّ نسقا سيميائياً مستقلاً/ محدَّداً ومحدوداً، أمّا أنّه **محدَّد** فلأنّ طبيعـــته الأيقونية تعني الإحاطة لمعنى خاصّ في الخارج، وأمّا أنّه **محـــدود** فلبدائيّـــته، وعـــدم وفائه بالدور التداولي على مستوى الحاجات المختلفة للإنسان .

وهناك نظرية أخرى تطرح في هذا الصدد، مفادها أنّ الكتابة التصـــويرية ليست ترميزاً عن معنىً محدّد، وليست رسما للأشياء، كما طرح سابقاً، بل هي تعبير عن جمل وبيانات قصصية، فهي

رســـومات لا يمكن الجزم بأنّ منشأها كان يعني أبعادها الرمزية ودلالـــتها الإحالية، فهي مجرّد نقل سردي لأغنية أو حكاية، قد اصـــطنعتها الشعوب التي مارست الصيد كالهنود الحمر وبعض القبائل الإغريقية وسكّان سيبيريا والاسكيمو، ويمكن مقابلة هذا الـــنمط الكتابي بمصطلح كتابة الجُمَل Phrasofram وقد أورد جِلْب Gelb بعض النماذج من الكتابة الاسكيموية ما يدلّ على ذلك.

والـــذي يتّضـــح من هاتين النظريّتين أنّ الكتابة التصويرية لم تـــتّخذ مســـاراً واحداً عند جميع الشعوب، بل كانت في بعض الشـــعوب كالمصـــريين وشعوب وادي الرافدين، اتّخذت الحالة الإشارية المحدّدة، ولكنّها لدى شعوب الإسكيمو اتّخذت شكلاً سردياً بعيداً عن النظام الكتابي المحدّد. (مجلّة البحرين الثقافية العدد ـ ١٥ص ٤٢).

الـــثانية: الكـــتابة الفكرية: وهي الكتابة التي يعبّر الرمز الكـــتابي فيها عن فكرة كاملة، إذا قصدنا بالفكرة المدلول الذي يعـــبّر عـــنه بأكـــثر من مفردة، والفرق بين الكتابة التصويرية والفكـــرية أنّ الأُولى تشكيل أيقوني يقترب من المطابقة للمعنى، وبعيدٌ عن الحالة الرمزية و الاعتيادية، بينما الثانية طريقة رمزية لا

تـــتماثل مـــع المعنى، بقدر ما تكون حالة اصطلاحية بحتة، وهي الطريقة التي لا تزال تستخدم في العلوم الرياضية، فإن الرمز (∞) يعبر عن فكرة (ما لانهاية) أو الرمز (>) يعبر عن فكرة (أكبر من).

و لم تطـــرح لنا الدراسات أمثلة تاريخية للكتابة الفكرية، إلا كـــتابة (المايا) التي لم يتمكّن الباحثون من فك شفراتها، فطرحوا فرضـــيات عديـــدة لتفسير طبيعة هذه الكتابة، فذُكر أنّها كتابة صوتية، كما ذكر أنّها كتابة فكرية، ورجح البعض أنّها تتضمّن كلا الفرضيّتين. (المصدر السابق ٤٢).

وينبغي التنبيه أخيراً أن مصطلح الكتابة الفكرية لم يتحدّد عند الجميع، فقد جعله البعض ازاء الكتابة الهيروغليفية .

الثالـــثة : الكتابة المفرداتية : وهي الكتابة الرمزية التي يعبّر فيهـــا الرمـــز الكـــتابي الواحد عن مفردة واحدة، فهي ليست تصـــويريّة؛ لأنّهـــا تعبير علامي و ليس أيقونياً، ولكنّها ليست صـــوتية ــ بـــالمعنى الذي سيأتي ــ لأنّها لم تلحظ فيها الأنظمة الصوتية، وأفضل مثال لها الأعداد العشرية، فإن العدد (٩) يعبر عـــن لفظ (تسعة) بدون أن تلاحظ حالته الصوتية، وإلا فالعدد (٧) يشـــترك معه في بعض الأصوات، ولكنّه لا يشترك معه في الكتابة .

والـــنظام العـــددي البدائي لدى الأمم كان يعبّر عن حالة أيقونية، قريبة من التجريد، ونرى بعض ملامحه تتجلّى في النظام العددي المنظور، فإن الرقم (١) يكتب بطريقة واحدة عند جميع الأمم؛ لأنّه يعبر عن حركة خطية واحدة، و الرقم (٢) في النظام العددي العربي يتمثّل في حركتين خطّيتين، والرقم ثلاث حركات خطّية .

وشبيه بذلك الأرقام الرومانيّة I,II,III وأقدم من ذلك النظام العـــددي المســـماري الـــذي يمـــثّل حالة تكراريّة لرمز الواحد T, TT, TTT فكـــلّ هـــذه الأنظمة العـــددية تتمثّل في حالة أيقونية قريبة من الكتابة التصويريّة، إلا أن التكرار لّما كان متعسّراً جـــدّاً في الأعـــداد الكـــبيرة، اضطر الإنسان إلى إختراع **الرمز العـــددي**، فالعشـــرة في النظام الروماني تكتب (X) وفي النظام المســـماري تكتب قريباً من هذا الشكل (◄)، والتعبير العددي الرمـــزى غـــير الايقوني كتابة مفرداتية. (للإستزادة عن الرموز العددية والرياضية راجع موجز في تاريخ العلوم ٢٨).

الـــرابعة : الكتابة الصوتية المقطعية : وهي خطوة متقدّمة في الحضارة الإنسانيّة بالنسبة لسابقتها، إذ فيها اكتشف الإنسان أن الألفاظ الّتي ينطق بها تتكون من مقاطع، والمقاطع وحدات صوتيّة

صغيرة تسيطر عليها حركة واحدة، فكلمة (مَسْرَح) تتكون من مقطعين كلاميّين هما: مَسْ + رَحْ، فيضع الكاتب لكل واحد من هذين المقطعين علامة اصطلاحية، يستعملها في جميع الكلمات الّتي يرد فيها نفس المقطع (مَسْ) تكتب في مثل كلمة (مَسْموم) و(مَشْمَس)، كما أن المقطع (رَحْ) تكتب في كلمة (رَحْمَة) و(يَبْرَح)، وغير ذلك.

ومن أشهر الكتابات المقطعيّة القديمة الكتابة المسمارية cuneiformes الّتي كانت تستعمل منقوشة على ألواح من الطّين في العراق و إيران، و غيرهما من بلدان الشرق الأوسط القديمة. (اللسان والإنسان٧٤).

وكانت الكتابة المسماريّة تحاط بالسرية في أغلب الظروف التاريخيّة؛ لأنّها ارتبطت بالمجتمعات الّتي تمتلك سلطة دولة في طور التكوين. (سوسيولوجيا اللغة ٤٣).

ولذلك وجد الدارسون صعوبات في حلّ الرموز المسماريّة طوال السنوات الماضية، وبدأ حلّها منذ منتصف القرن التاسع عشر، وكان ذلك فتحا لمعرفة حضارات كثيرة، ومعرفة أدوارها، ومنجزاتها الفكريّة والماديّة، ونتاجاتها الأدبيّة.

ومن الكتابات المقطعيّة الّتي لا تزال حيّة مستعملة حتّى الآن

الكتابة الصينيّة، وأما الكتابة الحبشيّة فهي كتابة مقطعيّة متقدّمة نحو الأبجديّة.

الخامســـة: الكـــتابة الفونيميّة (الأبجديّة): وهي الكتابة الّتي تعطي كلّ صوت تقريبا رمزا كتابيّا خاصّا، أي أنّها ترمز للفونيم الواحـــد بغرافـــيم واحد في معظم الحالات، وقد تكون الكتابة الهجائيـــة ترمز للفونيم الواحد بغرافيم واحد في جميع الحالات، كمـــا هي الحال في اللغة العربية، وتسمّى الأولى كتابه فونيمية ناقصـــة، والثانية كتابة فونيمية مثالية. ويسمّي البعض الكتابة الفونيمية بالأبجدية أو الصوتية أو العادية أو الألفبائية. (المعجم المفصّل ٤٨٠/١).

ويعـــدّ اكتشـــاف الكـــتابة الفونيمية اكتشافاً لنسق اللغة، خصوصا النسق الصوتي منها، إذ أنّ هذا النمط من الوعي اللغوي يســـتدعي تمييزا دقيقا للدفقات الصوتية، ومراقبة واعية للجهاز الصـــوتي، وعدد ما يخرج من أنواع الحروف في شتى الطبقات المتباعدة والمتقاربة.

والمعطيات الزمنية للتدوين الفونيمي تؤكّد أنّ الفكرة انبثقت من أكثر من مكان، في آن متقارب، فقد اكتشفها الكنعانيون في مـــنطقة (رأس الشـــمرة) بالقرب من اللاذقية في سوريا، حيث

استعاروا الكتابة المسمارية وطوّروها، وطوّعوها لنظام أبجدي دقيق، كذلك حاول المصريون أن يصلوا بكتابتهم إلى المرحلة الأبجدية، ولكن كانت الكتابة بعد بحاجة إلى تفكير جديد، فالطريقة الكنعانية، المتطوّرة عن المسمارية إلى الرسم الأبجدي، كانت ما تزال تعتمد على نقش العلامات الكتابية على ألواح من الطين، وهي طريقة غير عملية؛ لثقل حمل النصوص المكتوبة، ولخطر تعرّضها للرطوبة التي لا يؤمن منها إلا بإحراقها وتحويلها إلى فخار، وهو عمل كثير المشقّة والتكاليف، ويحتاج إلى وقت طويل.

لذلك اتّخذ المصريون طريقة أرستقراطية تحتاج إلى كاتب فنّان، وإلى أنواع من الريش للكتابة دقيقة الصنع، وإلى ورق خاصّ، وأنواع معيّنة من الأحبار والأصباغ.

وفي هذا الوقت كان الفينيقيّون في لبنان يمارسون فكرة الأبجدية، وحاولوا تيسيرها، وكانت مدينة (جبيل) شمال جنوب بيروت، وهي أبجدية نهائيّة فرضت نفسها على أكثر بقاع العالم المتحضّر، فأخذها اليونان، ومنهم انتشرت في جميع أنحاء أوروبا، وأخذها الآراميون فنشروها في جميع أنحاء آسيا، حتى حدود الصين، وتلقّاها العرب وغيرهم، ومنهم انتشرت في جزء

كبير من أفريقيا.

وتعرّضت الكتابة الأبجدية لتحسينات، بحسب طبيعة كلّ لغة، فالأوربيون جعلوا حركات الضبط من صميم الأبجدية، بينما جعلها العرب والعبريون والسريان زوائد وعلامات، توضع فوق الحروف أو تحتها.

وكان اختراع الكتابة سببا في ظهور اتّجاهات لغوية جديدة، لم تكن معروفة قبل أن يتعلّم الإنسان تخليد أفكاره وتثبيتها في وثائق، فمع الكتابة ظهر حرص على سلامة التركيب، ووضوح الدلالة، وإحسان التنسيق والتقسيم، والعمل على تنقية التعبير من الحشو والفضول، الذي لا يخلو منه الكلام الملفوظ، إذ لم يعدّ الكلام طائراً في الهواء، بل هو باق رغم انصرام الأزمنة وتقادم الأيّام. (اللسان والإنسان ١٢٨).

آفاق جديدة في الكتابة

١ ـ الغراماطولوجيا أو(علم الكتابة)

ليس من السهل كسر الأقفال التي أحكمها الكثير من الدارسين حول التيّارات النقدية والفكرية الحديثة، وليس من السهل أن تُكتشف حدود (الغراماطولوجيا) كعلم ينبغي أن يكون له حدّ يكتسب به كينونته، أى يكون به إيّاه، وليس غيره.

الغراماطولوجيا علم جديد اقترحه **جلب** Gelb ليدخل في خضمّ البحوث السيميوطيقية، وملخّص ما طرحه جلب أن نحدّد بدءا موضوعة هذا العلم، وهي الكتابة، وتجاوز التنقيب التاريخي عن هذه الموضوعة، بحيث تبقى أمراً منحازاً عن باقي الفعّاليات السيميوطيقية بالنسبة لمفهومها، ثمّ الاضطلاع باكتشاف القوانين التطوّرية التي تمرّ بها الكتابة.

وكان عمل جلب لبنة أولى تحاول صبغ الغراماطولوجيا بصبغة أركيولوجية، شأنها شأن باقي الموضوعات الأثرية، التي يجب أن

نكتشفها، ثمّ نتأمّل أبعادها، في حين وجّه **دريدا** البحث في اتّجاه فلسفي انطولوجي، كما سنذكره لاحقا، كما أنّ باحثين آخرين يرون ضرورة تناول الكتابة من منظور اثنولوجي، بدعوى ارتباط الكتابة بمحاولات السحر والدين والتصوّف، أكثر من ارتباط اللغة بهذه المجالات.

لم يكن ما عمله جلب يحضى باهتمام العلماء، لو لم يضع دريدا بصماته على نفس منطقة عمله، ولكن كانت طريقة دخوله لتحديد هذا العلم تختلف نهائيّاً عن طريقة دخول جلب، وملخّص ما يراه دريدا فيما يلي :

١ ــ إنّ الغراماطولوجيا قائمة على تفنيد المسلّمات الديسوسيرية حول الدليل اللساني، وأوّل ما يلاحظ عليها أنّ رؤيتها حول الكلام تعدّ ميتافيزيقية؛ لأنّ مشروع ديسوسير لن يكون مشروعا منطقيّاً، ما لم يحدّد طرفاه : الداخل والخارج، فإنّ الداخل هو مكمن الفكر، والخارج هو الكتابة، فإغفال هذين الطرفين يجعل درس الكلام ميتافيزيقيّا، هذا **أوّلاً**.

وثانياً: أنّ التفكير في الدليل اللساني لن يكون ممكناً أبداً، ما لم يخضع لمؤسّسة دائمة الحضور، أي منتظمة في مكان، وهذا يعني أنّنا لن نقدر أن نفكّر في الموضعة الزمانية بدون الموضعة المكانية.

وثالثاً: إذا سلّمنا مع ديسوسير بأنّ المقطع الصوتي لا يتأسّس إلا على نظام تخالفي، وعدم مطابقة الوجود الأوّل مع الوجود الثاني، والثاني مع الثالث، فإنّ ذلك لن يلغي لعبة الإحالة في ذات الرمز، وهذا يعطيه قدرا من الآنية والكينونة.

٢ ـ الغراماطولوجيا لن تقوم إلا بهدم الأحكام اللسانية القبلية، التي ذوّبت موضوعية الكتابة للتفكير، فجعلته هامشاً، وشكّلت الذاكرة على قمع هذا الوجود السيميوطيقي بجعله أثراً لا أكثر، ولذا من المقترح أن تكون الفونولوجيا (علم وظائف الأصوات) منطقة محدودة وتابعة للغراماطولوجيا.

٣ ـ إنّ البحث الغراماطولوجي لا ينبغي أن يجيب عن أين ومتى بالنسبة للأصل الذي يبحث عنه؛ لأنّ هذا من اختصاص التاريخ والاركيولوجيا، وإنّما يجيب عن ماهية الكتابة؛ لاستخلاص نظرية عامّة توجّه الوصف للوقائع. (اعتمدنا بشكل رئيس على الشكل والخطاب ٨٠).

وبعد هذا الطرح المختصر لتصوّر دريدا حول الغراماطولوجيا، لابدّ أن نسجّل عليه أنّ ما أفاض به، حول تفنيد المنطق اللغوي الديسوسيري، لم يصل إلى حدّ القناعات العلمية الواضحة، فإنّ **الملاحظة الأولى** قائمة على اعتبار الصوت شريحة ميتافيزيقية، في

حين أنّه شريحة خارجية محسوسة، وبتعبير الفلاسفة : إنّ الكلام من المقولات المادّية، والتي تتّسم بالخارجية والواقعية، فليس علميا أن نجعل الكلام ما ورائياً. **وأمّا الملاحظة الثانية والثالثة فهي** تعزّز الطرح الديسوسيري؛ لأنّ ما هو مذكور يتكامل معه ويقتضيه، ولا يلغيه.

والنتيجة أنّ مجال الغراماطولوجيا، أو علم الكتابة، لم يتجاوز أن يكون مجرّد تقديم قراءة انتقادية لثوابت اللسانيات البنيوية، وتأكيد أهمية الدليل الخطّي، ومن ثمّ تقديم مقدّمات العلم الذي تفترض أهليته لتناول هذا الموضوع، ولكن واقع الأمر يؤشّر إلى وقوف هذا الاتّجاه في حدود الكتابات التأسيسيّة الأُولى، مع جلب ودريدا، دون أن تكتسب امتداداً نظرياً أو تطبيقيّاً تحتله اليوم.

٢ ـ الغرافولوجيا أو (علم الخط)

لابدّ وأنّك التقيت يوما من الأيّام بمن حاول أن يحلّل شخصيّتك من خلال خطّك. هذا العمل بكلّ بساطة هو عمل (غرافولوجي).

والغرافولوجيا هو منحى تأويلي لسلوك الكاتب من خلال

الخصائص الشخصية لخطّه الكتابي، فهو أشبه ببعض الممارسات الفلكورية، مثل قراءة اليد، أو قراءة الفنجان .

فـــإذا كانت الغراماطولوجيا المقترحة من جلب ودريدا علماً جديـــداً وجد لسدّ الخلل الذي يعتري البحث اللساني المعاصر، فـــإنّ الغـــرافولوجيا تعتبر مبحثا قديماً نسبياً، بحيث يمكن بسط تاريخيّته عبر المراحل التالية :

أ ـ يمكن تلمسّ أوّل محاولة غرافولوجيا مع بداية القرن التاسع عشـــر من **لافتير** Lavter الذي حاول بذكاء أن ينظر إلى الخطّ من منظور يماثله بمورفولوجيا الوجه، أي في كونه يعكس السلوك والطبائع لصاحبه، ورغم ذلك فقد ظلّ استثماره السيكيولوجي يكن بدرجة العمق التي تجعله فتحاً علمياً متكاملاً .

ب ـ في سنة ١٨٧٥م ظهر أوّل علم جادّ في الموضوع بعنوان (نظـــام الغرافولوجيا) للقسّ **ميشون** Meichon وقد انطلق فيه صـــاحبه مـــن مـــبدأ أنّنا يجب أن نعرف الآخرين، وبما أنّه من المستحيل تحقيق ذلك بسبب الأقنعة التي تختفي وراءها سلوكيّات الناس وطبائعهم الحقيقيّة، فقد قال بوجود علاقة حميمة بين كلّ العلامات المحايثة للشخصية الإنسانية، والروح التي ترقد وراء هذه المـــادّة . فكما أنّنا لا نفكّر في ميكانيزيمات الكلام عندما ننطق،

فالشكل أيضا كذلك، فإنّ الحروف عندما تكتب تكون حصيلة لاواعيـــة تعـــبّر عن خفايا وأبعاد ما وراءها، وبرهانه على ذلك وجود عدد من الخطوط بقدر ما يوجد من الأشخاص، خصوصا بعـــد أن يـــلج هؤلاء مجال الكتابة الشخصية، بتجاوزهم مرحلة المراهقة .

ورغـــم أنّ المنطـــلق الـــذي يحكم قناعته منطلق ميتافيزقي وسيكيولوجي ساذج، فإنّ أهمّ ما يشدّ الانتباه هو الجانب المتعلّق بإمكانية تأويل الكتابة .

يـــرى القـــسّ ميشون في هذا الشأن وجود تفكيك للكتابة، بحسب أشكالها وصيغها، عن طريق رصد الطرق المختلفة لرسم حرف معيّن، ثمّ بعد ذلك منح دلالة لكلّ صيغة، وهذا ما قام به محـــدّدا لـــ(١٢٩) صيغة للرسم الخطّي، في كتابات معاصريه، مؤسّساً بذلك مصطلحية الغرافولوجيا الفرنسية، التي أخذها عنه لاحقا كلّ الغرافولوجيين داخل فرنسا وخارجها .

يذكـــر أنّ الكتابة السميكة والكتابة التي تصعد فيها الحروف تدريجـــا إلى أعلى، من بداية الكلمة حتى نهايتها، دليل عنده على الصـــراحة والسذاجة، في حين أنّ الكتابة المتشابكة التي تتشابك فيهـــا الأجـــزاء العـــليا من الحروف بالأجزاء السفلى فيما بين

السطور، تعتبر دليلا على الغموض وخطأ التقديرات والأحكام.

بـــل ذهب بعيدا إلى حدّ تحديد مقولة **المحصَّل** لتعيين حصيلة تمازج الصيغ فيما بينها، ومقولة **المهيمن** لتعيين السمة المهيمنة في كتابته.

جاء كلّ هذا نتيجة ملاحظة واستنتاج، وقد كانت ملاحظاته ودلالاته موضع تقدير، وبقيت لمدّة طويلة أساس كلّ التأويلات الغرافولوجية.

ج ـ بعد القسّ ميشون، الذي أخرج الطبعة النهائية للمبحث الغرافولوجي في فرنسا، جاءت الإضافات والتعديلات مع كتاب (أبجديـــة الغرافولوجيا) للباحث **كريبيو ـ جامان** Crepieux-Jamin ١٩٤٠ ـ ١٨٥٨م الذي قدّم تصنيفاً أكثر دقّة وعقلانية من تصنيف سابقيه، بخصوص صيغ الكتابة، مقسّماً هذه الأخيرة إلى عناصـــر أساسية في صورة أجناس، مثل (السرعة، الضغط، الـــبعد) وداخـــل الأجناس توجد أنواع، فداخل السرعة تندرج الكـــتابات السريعة والبطيئة والخاطفة. . . الخ، بحيث اشتمل تصنيفه النهائي على ١٦٨نوعاً.

لقـــد لاحظ أنّ كلّ الصيغ لا تظهر بنفس الكثافة في الكتابة الواحـــدة، وأنّ بعض الصيغ تكون أكثر حضوراً وتمثّلاً في نوع

دون آخر، كما لاحظ أنّ الصيغ يمكن أن تصنّف بحسب درجة أهميّتها، وهذا التصنيف يعتبر في حدّ ذاته تعريفاً للكتابة، يمكّن من خلال ترتيب سمات وخصائص الصيغ المناسبة في الصورة الشخصية المرسومة لصاحب الخط، وهي سمات لا تظهر بنفس الطريقة، ويرجع بذلك إلى الاختلاف في الذكاء والثقافة والموقع الاجتماعي للشخص، لهذا اقترح أن يكون لصيغ الكتابة تقدير بحسب ورودها في كتابات متناغمة، أي مرتبة وواضحة، وبسيطة ومعتدلة، دونما إذا كانت غير متناغمة، أي مبالغ فيها ومعقدة ومبهمة.

لقد قدّم في كتابه طريقة واضحة ومنطقية، بحيث تتّحد الكتابة لديه بحسب ترتيب صيغها حسب الأهمية، بصورة تكشف فيها الصيغ الأساسية عن سمات الشخصية المحدّدة، أكثر من غيرها، وتمكّن فيها الصيغ الثانوية من تلمسّ الفروق الموجودة في السمات المهيمنة، أمّا الصيغ المتعارضة فيما بينهما فتكشف عن تناقضات في طباع الشخصية.

وانتشر هذا النموذج في فرنسا والبلاد اللاتينية عموماً، حتى أصبح أساس التطبيقات الغرافولوجية، غير أنّ هذا الطرح اصطدم بإشكاليتين جوهريّتين، هما:

١ ـ اندماج التناغم بين مقولات نوعية متغايرة بصورة منتشرة، تشكّل ما هو أشبه بالظاهر، ممّا يحدّ ويقيّد فعالية التحليل.

٢ ـ الاقتصار على عنصر الشكل فقط، وإهمال عنصر الحركة التي تسجّل هذا الشكل الموجود، أي الاحتفاء بالناتج وترك عملية الإنتاج.

د ـ برز بعد ذلك النموذج الألماني، الذي يتّخذ مفهوم الحركة عنصراً أساسياً في التحليلات الغرافولوجية، حيث وجّه الألمان نقداً للتصوّر الفرنسي الثابت الجامد، مقترحين تصوّراً ديناميكياً يقوم على الاعتراف أوّلا بمفهوم الحركة.

وهكذا كان الموضوع الذي تستهدفه الغرافولوجيا الألمانية هو **التسطير** LeTrain أي ذلك الخطّ المتصل الذي نرسمه ونحن نكتب، والسيلان الحبري الذي يشدّ الحروف إلى بعضها في كلمات، ويشدّ الكلمات في أسطر، وبعبارة أخرى: هو إجراء رسم الأدلّة وليس شكل الأدلّة، بعد أن تكون قد رسمت.

لقد اهتموا بمرونة السطر والإيقاعات والحركة، كما اهتموا بعلامات الشكل الناتج بالحركة التي أنتجته، وهذه الطريقة ساعدت على اكتشاف الدينامية الغريزية للفرد، وكذا حوافزه

وإمكاناتــه وتكيّفــه ومشاركته، وهي بذلك تتميّز جذرياً عن الطريقة الفرنسية التي رأيناها تسعى إلى تكوين نماذج.

إنّ التوجّه الألماني كان أوّل مساءلة للغرافولوجيا الكلاسيكيّة الفرنســية، غير أنّ الطرح الألماني لا يعتبر المنتقد الوحيد، فكلّما تقدّمــنا في تاريخيــة البحث الغرافولوجي فقدت الغرافولوجيا الكلاسية مصداقيّتها.

ونشــير هــنا إلى بعــض مظاهــر القصــور التي منيت بها الغرافولوجيا الكلاسية، وذلك في أمور:

١ ـ المظهر الثباتي الذي لا يرصد الكتابة في تحوّلاتها المستمرّة، أي لا يجعل موضوعة بحثه الكتابة حالة تزمّنها.

٢ ـ إنّهــا تــبعد عــن الكــتابة بقدر ما ترتمي في أحضان السيكيولوجيا، وهذه المشكلة أفرزت نوعاً من الوعي التفت على أساسه من جاء بعدها، محاولاً الاقتراب للكتابة.

٣ ـ كونهــا فصــلت بــين الشخصية والطبع في محاولات الاكتشــاف، والواقــع أنّ الشخصية والطبع يعتبران دينامية لا يتجزآن.

ويتــبيّن ممّــا تقدّم أنّ الغرافولوجيا كعلم تستهدف الكتابة كموضوع، لغاية تأويلية تخصّ معرفة الطباع والشخصيّات، ولا

مفرّ من الاعتراف أنّه إن أمكن اليوم الحديث عند الغرافولوجيا في مجـــالات الحيـــاة المعاصـــرة، فإنّنا لا نتجاوز، في تسخير البعد التأويـــلي، التوجّهات السيكيولوجية. (اعتمدنا بشكل أساس على الشكل والخطاب ٨٣).

٣ ــ فضاء الكتابة

ثمـــة شـــيئان **الكتابة والفضاء**، أمّا **الكتابة** فهي تعني تجسيد الفكرة على ما يصلح لإبقائها، أو هي تقنية حبس الأصوات في مكـــان، أو هـــي مثول للأصوات، أو تحنيطها، وكلّ ذلك قبال الحالـــة الشـــفاهية، الـــتي تعني كينونة الفكرة خارجاً في مقولة متصـــرّمة ذاتـــا، وهي الزمان، فإذن عندنا الزمان الذي يساوق الشفاهية، والمكان الذي يساوق الكتابية.

وأمّـــا **الفضاء** فهو، بتعريف ساذج ودقيق في نفس الوقت، فـــراغ الصـــفحة وبياضـــها، وفضاء الكتابة يعني استثمار ذلك البياض، وملأه بالسواد بطريقة تعني وتدلّ.

وفضـــاء الكـــتابة مصـــطلح نشأ من تحوّل النصّ الأدبي من الشـــفاهية إلى الكـــتابية، فإنّ انتقال بعض الآداب من المرحلة السمعية إلى المرحلة البصرية ــ مثل الشعر ــ له أثر كبير وبالغ في

تكييـــف بنية ذلك الجنس الأدبي، إذ أنّ الإنشاد كان يجعل القيم الموسيقية في الشعر القديم هي الحاسمة في تحديد قيمته، أمّا القراءة ـ التي تجعله كتابياً ـ فهي تبرز في تكوين عناصر تشكيلية مكانية مختـــلفة عن العنصر الزمني الأوّل. (نظرية البنائية ٣١٠). وبتعبير آخر: تعطيه فضاءً.

ومن هنا يعتبر بروز مفهوم فضاء الكتابة أفقاً جديداً في عالم الكتابة، لم تكن تعرفه الكتابة بأبعاده السيميولوجية، فقد أصبح مـــن المألوف الحديث عن الفضاء واستكناه دلالاته وأبعاده، من قِـــبل الشعراء المحدّثين وبعض الدراسات التي تجعله من المكوّنات الشـــعرية الأساسية، بعدما أغلقت الدراسات البنيوية كلّ ذلك، لاعـــتمادها عـــلى المكتوب/ **السواد** وإغفالها الفضاء/ **البياض**. (دينامية النص ٧٣).

وليتّضح مقصودنا أكثر لابدّ من المرور على بعض الأحداث الـــتي صار فضاء الكتابة موجّها لفنيّتها، فمن ذلك ما فعل **جرج هربـــرت** لانتاج المعنى في قصيدة له، كانت باسم **الهيكل** حيث تعطـــي السطور هيئة مرئية توحي بالهيكل، وكقصيدة **إي. إي. كمـــنغز** التي كانت تعالج فكرة الجندب، حيث جعل الكلمات مـــتطايرة ومبعثرة؛ للإيحاء بنطنطة الجندب وطيرانه الذي يخطف

البصر.

وأكثر من ذلك ما شطح به **لورانسي ستيرن** حيث ضمن كتابه صفحات بيضاء؛ ليؤكّد على عدم رغبته في معالجة موضوع ما، وليدعو القارئ إلى أن يملأ هذا الفراغ بنفسه، وأنّ الفراغ هنا مقابل للصمت، وكذلك ما فعله الشاعر المعروف **ستيفان مالارامية** في قصيدة له بعنوان **ضربة النرد**، إذ قام بتكوين مجموعة متنوّعة من أبناط الصفحة وطولها، في نوع من السقوط الحرّ المحكوم بالمصادفة التي تنشأ من ضربة النرد. (الشفاهية والكتابية ٢٣٢).

وهناك العديد من الأمثلة التي تجعلنا نقف ونتأمّل حالات سيميائية متراكبة، من مجموعة من الأنساق السيميائية الأصغر منها، ونتعجّب من طاقة العقل الإنساني الذي يفتح الرمز على رمزٍ أكبر منه، ويوظّف الشفرة لتكوين شفرة أوسع منها، وينبغي قبل أن نغادر البحث عن فضاء الكتابة أن نذكر عدّة تعليقات:

الأولى: أنّ مفهوم فضاء الكتابة برز لدى النُقّاد السيميولوجيّين، ولكن المصطلح لم يكن موحّدا فقد نراه يسمّى **تقنية الكتابة** أو **الكتابة البصرية** أو **الترجمة الكتابية** أو **الكتابة المجسّدة** أو **الكتابة المرئية** أو **فضاء النص**.

والـــبعض يحاول التفريق بين فضاء النص وفضاء الكتابة، فإذا كـــان الأوّل يعـــني طـــريقة توزيع انساق النصّ الداخلية وبناه الصغرى، فإنّ الثاني يعني طريقة توزيع السواد في البياض.

الثانية : أنّ الممارسات الإجرائية لفكرة فضاء الكتابة كغيرها مـــن التوجّهات الحديثة، التي استقدمت معها شطحات لم ينج منها الكثير، فلا تتعجّب ممّن يترك في كتابه عدّة صفحات فارغة تعـــبيرا عـــن صمته، ولكن من المعقول ـ كما حدث ـ أن تهدأ الـــرياح، وحومـــة الـــنزوع إلى المغالاة، والانزلاق وراء بريق الاكتشـــاف، فتكون بعد ذلك الممارسات إفرازات تتعامل مع الفن لمنطقية الفن نفسه.

الثالـــثة : إنّ هذه الوقائع البصرية أو اللابصرية لم تنل حظّها مـــن الدارســـة والتصنيف، مثلما حظيت به الوقائع السمعية في مختلف الثقافات، على أنّنا لا ننكر اهتمام العرب القدامى بتجويد خطّهـــم والتأنّق في أشكاله وأدواته، وبكتابتهم بعض الكلمات بخـــط غـــليظ أو بحبر مغاير، أو ببعثرة الحروف في بعض أنواع الرســـائل الإيهاميـــة، وقد وقع استغلال التختيم أيضا كظاهرة فضـــائية، وهذه الوقائع وإن لم تكن أكثرها لأغراض فنية، وإنّما نفعيـــة، إلا أنّ هـــذا مؤشّر على أنّ الفضاء الكتابي من الثوابت

الجوهرية مقابل العرضية الهامشية. (دينامية النصّ ٥٩).

الـــرابعة: يعتبر الاحتفاء بطروحة الكتابة الفضائية، وعلاقة السواد بالبياض، رجوعاً إلى المراحل الطفولية للكتابة؛ لأنّ الكتابة ـ كمـــا عرفـــنا ـ مـــرّت مـــن حالة أيقونية متمثّلة في الكتابة الهيروغليفية، إلى ذروة الحالة الرمزية المتمثّلة في الكتابة الفونيمية، فالرجوع بالكتابة إلى التمثّلات الأيقونية المقصودة بالتشابك بين الســـواد والبياض، هو التروع إلى البدائية، والميل إلى الطوطمية، ولكـــن بإسلوبها المتحضّر، وهذه هي إحدى أرهاصات دينامية الـــنفس الإنســـانية الإبداعيـــة، التي تحاول أن تجعل من اللحظة العاديـــة، والـــرؤية الســـاذجة، واللمحة الطفولية، فنّاً متطاولاً ومـــتجاوزاً، كما هو الشأن في الفنون التشكيلية وتقنية التكثيف في قصـــيدة النثر، وربّما تتّصل هذه الظاهرة برؤية خاصّة لطبيعة الفـــن، هـــي أن تقادم الفن زمنياً يجعله يفضي إلى حركته باتجاه الحـــالات الـــبدائية غالباً، لأنّ تلك الحالات تعبيرٌ عن الإنسجام الصـــافي بـــين الإبداع والنفس المبدعة، وهذه التفاتة بحاجة إلى تعزيزها بالشواهد، فلتكن فكرة أوّلية.

٤ ـ علامات الترقيم

وهي مجموعة من العلامات اخترعها أهل الكتابة لصيانة المعنى عـــن التداخل والمساعدة على فهم الكلام، وأجلى أمثلتها النقط والفواصل التي تمارس فعليا في الكتابات المطبوعة، ولا يتوهّم من كلمة الترقيم أنّها أرقام للصفحات أو لغيرها.

وسوف نوزّع كلامنا عن علامات الترقيم على ثلاث نقاط :

أ ـ ولادة علامات الترقيم

يـــتّفق الفيـــلولوجيون على أنّ أوّل جهاز شبه منتظم للترقيم أوجده النحوي الإغريقي **أرسطو فان البيزنطي** نحو المائتين قبل الميلاد، أي في أوج العصر الهلنستي، وذلك في مدينة الاسكندرية أيّام كانت عاصمة للبطالمة، وكانت حينئذٍ وحدة اجتماعية ذات صـــفة عالمية، حيث ينتمي سكّانها إلى نحو ثمانية وخمسين جنسية على الأقل.

ويتمثّل الباعث على استحداث علامات الترقيم أنّ البطالمة قد نصـــبوا أنفسهم زعماء للحضارة الإغريقية، واستشعروا ضرورة السيطرة على مقاليد الثقافة وكلّ ما يتّصل بها؛ لتوجيه الحكم إلى كافّـــة أرجاء البلاد المصرية، الأمر الذي جعلهم يبنون؛ لتحقيق

هذا الغرض، متحفاً ملكياً وجامعة ومكتبة عمومية منقطعة النظير في عصـــرها، وقد جعلوا الإغريقية لغة للبلاط، بيد أنّ المصريين وجدوا صعوبة شديدة في تعلّم الإغريقية، ومنشأ الصعوبة ـ كما يـــرى **أرســـطو فان** نفسه ـ ليس في كثرة اللهجات الإغريقية فحسب، وإنّما في كيفية الكتابة بصفة خاصّة.

ذلـــك أنّ الكـــتابة المصـــرية القديمة ـ والتي أثارت إعجاب يونـــانيي القـــرن الخامس قبل الميلاد، فسموها الهيروغليفية، أي الرسوم المقدّسة ـ كانت تترتّب من خمسمائة رسم تصويري.

وأوّل شـــرارة لعلامـــات الترقيم عندهم كان جهازاً لترقيم الكلمات، وقد استعملوا النقطة، فإذا وقعت داخل السطر كانت فاصلا بين الكلمات، وإذا وقعت أعلاه أنبأت عن مواضع النبر، وإذا وقعت أسفله أنبأت عن حروف العلّة والحروف غير المنطوقة.

ثمّ عمد ارسطو فان، مع أحد تلامذته، لتطوير هذا الجهاز من ترقيم الكلمة إلى ترقيم الجملة، فالنقطة الواقعة تحت السطر تدلّ عـــلى وقفـــة قصـــيرة، والواقعة فوق السطر تؤذن بتمام الجملة والوقفة الطويلة، والواقعة متوسطة داخل السطر تدلّ على وقفة متوسطة، أي مترلة بين مترلتين.

إلا أنّ الإغـــريقية ليســـت اللغة الأولى في العالم التي حفلت

كتابـــتها بعلامات الترقيم، إذ يستنتج من النقش الذي عثر عليه في **حمـــاه** والعـــائد تاريخـــه إلى ٨٠٠ ق م أنه يقدّم دليلاً على اســـتعمال الآراميين خطّا مائلا عازلا بين الكلمات، ثمّ أصبحوا بعدئـــذٍ يفصلون بين الألفاظ بنقاط فوق السطر، وبمعدّل نقطة واحدة في أعلى الحدّ بين الكلمتين.

ولعـــلّ المســـمارية تكون أوّل كتابة تزوّدت بالترقيم في فترة معيّنة من تاريخها ببلاد الرافدين، إذ لم تكن في بادئ أمرها تعرف فواصـــل بين الألفاظ، بل كانت وحداتها الخطية تكتب الواحدة ملتصقة بالأخرى دون فصل، ثمّ أخذت نصوصها الشعرية، شأنها في ذلـــك شـــأن كتابة اللغة الأكدية القديمة، تشهد فصلا بين الكلمات برمز يمثّل مسماراً وحيداً قائماً بين كلّ لفظين.

ويرى العالم الدانماركي **مونتر**، مكتشف المسمار القائم مقام علامـــة ترقيم تؤدّي وظيفة النقطة، أنّ مخطوطة **نيبور** التي تحمله إنّمـــا هي في الواقع وثيقة الصلة بلغة **الابستاق** Avesta لسان كتاب الفرس المقدّس المنسوب إلى زردشت.

يقـــول **أردشـــير بابكـــان** في كـــتابه إلى جسنسفشاه ملك طبرستان: **إعلم أنّ الاسكندر أحرق كتاب ديننا البالغ اثني عشر ألف جلد بقرة في اصطخر، وكان قد بقي منه ثلث في الصدور..**

ويرى العالم الإنجليزي **وست** West أن إبستاق الهخامنشيين تمّ إخراجه بطريقة متميّزة، دالّة على باع في الترقيم، حيث قسّم إلى ألف فصل كلّ منها ينقسم إلى واحد وعشرين كتاباً أو نسكاً، وفي عهد الساسانيين لم يبق من هذا الكتاب عدا (٣٤٥٧٠٠) كلمة مبوّبة في ٣٤٨ فصلاً، ومقسّمة كذلك واحد وعشرين نسكاً.

وما يهمّنا هنا هو أنّ للابستاق لغة قائمة الذات، ولها أبجدية خاصّة بها تسمّى بالفارسية (دين دبيره)، وتعتبر أفضل أبجدية في الشرق، خاصّة وأنّها تتفرّد من بين كتابات الشرق عامّة بتسجيلها الصوائت، جنباً إلى جنب مع الصوامت، تسجيلاً هجائياً واضحاً ومطرداً، ولئن أضحينا لا نملك أثراً مكتوباً بهذه اللغة، عدا الابستاق، فإنّ هذا النصّ شاهد على أنّ كتابتها موشّحة ببعض علامات الترقيم.

فليس من المستبعد إذن أن يكون الترقيم اختراعاً شرقياً صحيحا عرفه العبرانيون والمؤابيون، من قبل أن يستعمله الإغريق بقرابة قرنين، وتحلّى الابستاق ـ كتاب الفرس المقدّس ـ ببعض علاماته قبل تحلّي إلياذة هوميروس بها بفترة من الزمن غير قصيرة.

ب ـ ترقيم العربية في عصر المخطوط :

لا شـــكّ أنّ لأهل اللسان العربي أضخم تراث مخطوط عرفته البشـــرية، لـــتطاول زمنها وسعة رقعتها، ولكنّ التراث العربي المخطوط لم يصلنا كاملا؛ بسبب ما توالى عليه من نكبات الغزو المغـــولي والحـــروب الصـــليبية وحرب إعادة الاحتلال بأسبانيا والحروب الأهلية والفتن الداخلية .

وللأسف لم ينقب العلماء حول علامات الترقيم لدى العرب، ولكن ما يذكره المستشرقون ـ وبالذات المستشرق **جروهان** ـ أنّ العـــرب القدامـــى كانوا يستخدمون النقطة والدائرة، علامة للفصـــل بين الجمل، والدائرة أكثر استعمالاً في مصنّفات العرب القدامى .

أمّـــا الـــنص العربي الذي حظي بترقيم مكتمل ومطرد فهو القـــرآن الكريم، وذلك للوظيفة الدينية والاجتماعية الخطيرة التي يحمـــلها هـــذا الكـــتاب المقدّس، ففي مصاحف القرون الأولى وجـــدت الدائـــرة في أواخر الآي، وهذا دليل على الوعي التام بضـــرورة التســـجيل الخطي لظواهر الوقف وغيرها، فقد تبيّن للمســـلمين، مـــنذ فترة الوحي، أنّ الدراية بالوقف شرط لازم للـــتلاوة على نحو سليم، وترتّب على ذلك أنّهم **كانوا يتعلّمون**

الوقوف كما يتعلّمون القرآن ـ على حدّ تعبير الاشموني ـ.

وقد اهتمّ علماء القراءة من بعدهم بالوقف، على أساس أنّه إحدى الكلّيات اللسانية، فضبطوا أنواعه ومُدَده، وأشاروا إلى مواضعه في النصّ المكتوب بعلامات كاملة الأداء، فجعلوا لضبط أحوال الوقف والتجويد ثماني عشرة علامة للترقيم، خاصّة بالنصّ القرآني، وجرى استخدامه ولا يزال في المصاحف بكافّة البلاد الإسلامية قديماً وحديثاً.

فللقرآن ـ إذن ـ في مضمار الترقيم علامات خاصّة به، لم تقتبس من الكتابات الأجنبية، بل استمدّت في بعضها من الحروف العربية، مثل حرف (الميم) وكلمة (قف).

ج ـ ترقيم العربية في العصر الحديث:

انبثقت علامات الترقيم الحديثة بهذا الشكل المألوف، نتيجة لتوافر الطباعة الحديثة، التي نقلت الخطّ إلى مستويات بعيدة من الأناقة، ومن المعروف أنّ أولى كتب التراث العربية، التي طبعها المستشرقون خلال القرن الثامن عشر بألمانيا، وغيرها من البلدان الغربية صدرت خالية من علامات الترقيم، ما عدا البياض بطبيعة الحال، ثمّ في غضون النصف الأوّل من القرن التاسع عشر أُدخلت إلى أمهات الكتب، المحقّقة والمطبوعة في الشرق والغرب

جميعـــاً، علامـــة ترقيم واحدة، هي الفاصلة، إشارة إلى تقسيم الـــنص، وحفاظا على مراميه الأصلية، ثمّ لجأ الكتاب بالعربية في أواخر القرن التاسع عشر بمصر والعراق والشام إلى احتذاء المنوال الأوروبي في ترقيم الكتابة.

وفي واقع الأمر أنّ أولى المحاولات التقعيدية كانت سنة ١٩٠١م عـــلى يـــد **أحمد زكي باشا** في مصر، في مقدّمة كتابه (الدنيا في بـــاريس) الـــذي صـــدر مرقّما، وذكر فيها ثمان علامات وبيّن دلالاتهـــا، وقـــد كانت محاولته استلالا من اللغة الفرنسية، التي انحصـــرت مراجعته لها في هذا المضمار، واجتزأ من ذلك بالترر اليســـير، فـــإذا قلـــنا: إنّ قواعد الترقيم آنذاك لم تكن في اللغة الفرنســـية منضبطة، بل هي من أشدّ قواعد الترقيم فوضوية في العالم، كان اتّخاذها منهلا للمعطيات في غاية الخطورة.

وغايـــة ما يفضي إليه التحقيق أنّ قواعد **أحمد زكي باشا** لم تكن مناسبة تماما للغة العربية، وذلك بسبب ارتكانها إلى مصادر قليلة، غير متماشية مع المنظور اللساني الراهن، وأيضا بسبب عدم المنهج الواضح، والفردية في العمل ـ كما اشتهر عن الشخصية المذكورة ـــ.

وقد اقتبس **عبد الرؤوف المصري** محاولته من علامات الترقيم

في اللغة الألمانية، وأزاد بعض العلامات على ما طرحه أحمد زكي باشا، و لم يكتف بسرد أسماء العلامات مع رسومها الخطية، كما فعل استاذه، وإنّما عمد إلى تبويبها في ثلاثة أصناف: علامات وقفية، وعلامات نبرية، وعلامات صامتة.

ولا زالت علامات الترقيم في تطوّر مستمر إلى يومنا هذا، حتى الوصول إلى الطرق التي يمكن الكتابة أن تؤدّي جميع المخزون الشعوري والصوتي، ولا يمكننا أن نغفل ما أسهمت به الأجناس الأدبية، كالشعر والقصة والمسرحية، من إضافات نوعية في تطوير علامات الترقيم، ولكن الأمر لا يزال محطًا للتأمّل والدرس والتقعيد إلى يومنا هذا.(اعتمدنا في هذا الموضوع بالدرجة الأولى على دراسة عبدالستار العوني، بعنوان مقاربة تاريخية لعلامات الترقيم، من إصدار عالم الفكر الكويتية، م ٢٦ العدد الثاني، ١٩٩٧م).

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تطـــوّر اللغـــة

(الـــلغة كـــائن حي) مقولة سادت على ألسنة الفلولوجيين وعلماء اللغة، وصارت من المسلّمات البديهيّة التي لا تقبل نقاشاً، ولا توضيحا، ولكن نقول: المقصود من هذه المقولة أنّ اللغة تنمو كما ينمو الكائن الحي، حيث تخرج من رحم العدم إلى الوجود، بدائيـــة، ثمّ تنمو بأشكال مختلفة، وتتّجه باتجاهات شتى، وليس لأحد توجيه سننها إلا الزمن.

والتطوّر ـ بما هو مفهوم لغوي ـ أخصّ من التغيرّ؛ لأنّ التغيّر يعـــني التحوّل من حالتة إلى اُخرى، من دون اشتراط أن تكون الحالة الثانية أرقى أو أدنى، بينما التطوّر تحوّل من حالة إلى حالة أرقـــى، ولكنّ المقصود من لفظ (التطور)، بما هو مصطلح لدى علماء اللغة، ما يساوق لفظ التغيّر أو التحوّل.

والتطوّر اللغوي يصيب جميع طبقات اللغة، وهي:

ـ الطبقة النحوية .

ـ الطبقة الصرفية .

ـ الطبقة الصوتية .

ـ الطبقة المعجمية .

وكـــلّ تطـــوّر في أي طبقة من هذه الطبقات يتّخذ أشكالا مختلفة، وربّما غير محدودة، ومن هنا سوف نستعرض بعض أنماط الـــتطوّر، ملاحظـــين في ذلـــك توزيعها على الطبقات اللغوية المذكورة.

وقـــبل أن نبدأ في استعراض هذه الأنماط نودّ أن نشير إلى أنّ التداخل بينها قائم ومنجرّ على جميع الطبقات، فقد نرى تطوّراً صوتياً يؤثّر في التطوّر الدلالي، أو صرفياً يؤثّر في التطوّر الصوتي، إلى غير ذلك، فليلتفت .

(١)
التطوّر في الطبقة النحوية

وهـــو أبطأ حركات التطوّر في سير اللغة الزمني؛ وذلك لأنّ الطـــبقة الـــنحوية هي الطريقة التركيبية التي على أساسها يوزّع المتكلّم مفرداته، فهي بنية جاهزة، أشبة بظرف الكلام، ممّا يعطيها أهمية كبيرة في عملية استقبال المعنى، لذا يكون الحفاظ عليها من ثوابت عمليات التواصل.

ومن أمثلة التطوّر اللغوي النحوي في اللغة العربية، ما نراه في قضية موقع الفاعل والمفعول به، حيث تتمتّع اللغة العربية بمرونة كـــبيرة في توزيع الفاعل والمفعول به؛ بسبب وجود الإعراب في الفصحى، فتعددت الأشكال مثل (احترم عليٌّ محمداً) و(احترم محمـــداً عليٌّ) و(عليٌّ احترم محمداً) و(محمداً احترم عليٌّ)، وكلّ ذلـــك نشأ من فعالية الإعراب الذي يقوم بتفتيح المضمون لدى الســـامع، وما حدث في اللهجات العربية الحديثة أنّ التزمت في

بناء الجملة الثلاثة بنظام واحد على هذه الشاكلة:

فاعل + فعل + مفعول

علي احترم محمد

وهـذا الـنحو مـن التطوّر كان نتيجة لفقدان الإعراب في التواصل اللهجي، الأمر الذي حتّم استحضار قرينة نوعية لتمييز الفاعل من المفعول به، فكان بنظام التوزيع الخاص.

ومـن أمثلة التطوّر النحوي الواضحة في اللغة العربية ظاهرة التخـلي عن الإعراب كلّيا في اللهجات الحديثة، وقد طرحت حول قضية الإعراب عدّة تساؤلات، فتحت بحوثا متعدّدة لدى فقهاء اللغة، وسوف نتعرّض لثلاثة تساؤلات أساسية، هي:

ـ كيف نشأت ظاهرة الاعراب في اللغة العربية؟

ـ هـل الـلهجات الحديـثة مـتطوّرة عن اللغة الفصحى بترك الإعراب؟

ـ هل أنّ ترك الإعراب من السنن التطوّرية التي لابدّ أن تمرّ بها اللغة؟

أمّا **بالنسبة للتساؤل** الأوّل، فالذي وجّدته جواباً عنه ما يراه بعـض المستشـرقين أنّ أصل الإعراب كان تطوّرا عن ضمائر وأسماء إشارة. . **فالفتحة أصلها «ها» وهو اسم إشارة مستعمل في**

اللغات السامية، ولم يزل في الحبشة يلحق الأعلام في حالة النصب، إذا وقع عليها فعلٌ ذو اتّجاه مثل ((قصد))، وأصل معناها في هذا الاستعمال الاتّجاه إلى شيء أو شخص معيّن، وإذا صحّ هذا جاز أن نرى أنّ الضمّة مشتقّة من ((هو))، أي ضمير الغائب، أمّا علامة الجر فظاهر مشابهتها لياء النسب أنّها تطوّر عنها، وهي تفيد الكلمة معنى الوصفية، وفي اللغات الهندية الأوروبية نرى لواحق الخفض مشتقّة من لواحق دالّة على الوصفية، ويساعد على هذا في العربية أنّ الصفة تجيء بعد الموصوف، فيقال: ((البيت الملكي)) وباتّحاد الموصوف مع الوصف في المعنى، وفي التلفّظ بهما مرّة واحدة، استغني عن إعراب التالي، وخفضت الياء فنشأ الخفض، وهو إعراب جديد.(الوجيز في فقه اللغة ٢٩٧).

وقد مال إلى هذا الرأي الباحث الشيخ عبدالله العلايلي في كتابه ((مقدّمة لدرس لغة العرب)) فيقول: نعتمد الآن في هذه الخلاصة ما انتهى إليه البحث الاستشراقي، في الإعراب وفي حركاته، أنّها بقايا ضمائر وأدوات إشارية، على ما ذكره العلامة رايت في كتابه (قارنة نحو اللغات السامية) وانتهينا إلى رأي جديد في التنوين، وهو أنّ العربي لما أقرّ لغته في اللفظية، واستوى منطقه على أشدّه، كره الصوتية في الحركات الإعرابية التي يقتضي مدّها

عند الوقف عليها ظاهرةً، فقطع المدّ بالتنوين، وقد ظهرت محاولته هذه في تنوين الترنّم من مثل قول الشاعر :

«أقلّي اللوم عاذلَ والعتابَنْ»

والأصل : والعتابا .

وإذا صحّ هذا فيكون العربي قبل التنوين كان يقف على الحركات ممدودة مما يشعر بصحّة الملحظ الاستشراقي. (مقدّمة لدرس لغة العرب ٣٥٨).

ولكنّ الذي يبعد هذا الرأي أنّ ظاهرة الإعراب ظاهرة منتشرة في كثير من اللغات، ففي اللغات السامية التي هي نفس العائلة اللغوية للغة العربية، نجد اللغة الاكدية بفرعيها البابلي والآشوري تجري عليها نفس القواعد الاعرابية لدى العرب بالحركات الثلاث، كما أنّ نفس ظاهرة الإعراب لوحظت في لغات من عائلات أخرى، ولكن تأتي بشكل آخر، أي أنّ تغير الكلمة يكون بتغير التركيب، ولكنّ الحركات تختلف، فمن ذلك اللاتينية واليونانية والألمانية، ومن قبلها السنسكريتية التي تعتبر أُمّاً لهذه اللغات، وبقية اللغات الهندية الأوربية . هذا كلّه في الجواب عن التساؤل الأوّل .

وأمّا بالنسبة للتساؤل الثاني فالجواب عنه ليس واحدا؛ لأنّ

النظريات المطروحة حول طبيعة اللغة الفصحى، العربية بالذات، ليست متّفقة، ونذكر هنا ثلاث نظريات :

النظرية الأولى: إنّ اللغة العربية في الأصل هي الفصحى، وما هذه اللهجات إلا تشعّبات طبيعية عن تلك اللغة الأصلية، والذي يدلّ على عراقة اللغة الفصحى، وقدمها تاريخيا على كلّ اللهجات المعروفة القديمة والحديثة، أنّ أحدث أبحاث فقه اللغة التاريخي والمقارن تقرّر أنّ اللغة العربية الفصحى هي أقرب الصور إلى ما كانت عليه اللغة السامية الأم، تلك اللغة الأصلية المندثرة، والتي تفرّعت عنها الاكدية والكنعانية والعربية والحبشية..الخ. (اللسان والإنسان ١١٠).

النظرية الثانية: القائلة إنّ العرب الأقدمين على لهجات مختلفة، و لم تكن بينهم قبيلة ما تتكلّم اللغة الفصحى كلغة يومية، إذن هي ليست إلا لغة الثقافة والدبلوماسية والدين، لذلك ترى الشعر العربي المنقول إلينا كلّه منسب إلى اللغة الفصحى، من دون انتسابه إلى لهجة معيّنة، ما عدا بعض الأحكام الاعرابية الجزئية التي ربّما تقتضيها الطبيعة الشعرية الضاغطة على نفس الشاعر مرّةً، والقصور في استيعاب أحكام اللغة الفصحى أخرى، ومحاولات القياس والاجتهاد ثالثة .

النظرية الثالثة:أنّ اللغة الفصحى، وهي المتمثّلة في لغة القرآن، مـــا هي إلا لغة سدنة الكعبة وأمراء الحج من قريش، وكانت في واقعها لغة منتقاة من جميع لغات العرب؛ لأنّ الناس كانوا يفدون إلى مكّة للحج، وكانت قريش تترصّد للغاتهم، فما وجدوه سلسا مناســبا انتخــبوه، وما وجدوه خشناً منافراً تركوه لأهله، ولذا اشــتهر بــين الدارسين القدامى والجدد أنّ القرآن نزل على لغة قريش .

وبقطع النظر عن المرجّحات التاريخية والمنطقية لكلّ نظرية من هذه النظريات فإنّه من المحتمل أن تكون اللهجات الحالية تطوّرا نحويا عن اللغة الفصحى، بترك الإعراب، تخفيفاً على المتكلّم من مــراعاة ضــبط الأواخر، أو اكتفاءً بالبنى السياقية التي برزت، كقرائن، على مرّ العصور. وهذا هو الجواب عن التساؤل الثاني.

وأمّــا بالنســبة **للتســاؤل الثالث** فالجواب عنه هو ما ذكره **الدكــتور حســن ظاظا** في كتابه (للسان والإنسان) فيقول: **هل الانــتقال من التركيب المعرب إلى التركيب الموقوف يعتبر ظاهرة حتمية في تطوّر اللغات؟ نعم ولا .**

نعــم؛ لأنّ الجملة التي يصنعها المتكلّم في المجتمعات القديمة إنّما يصنعها في نفس الوقت الذي يصنع فيه فكرته نفسها، وهو لذلك

يحتاج إلى أقصى حدّ من المرونة في التركيب والترتيب، حتى تتيسرّ لـــه هذه المسيرة التي يلاحـــق فيها اللفظ جزئيات المعنى وهي ما تزال في طور التكوين، والذين لهم بعض اتّصال باليونانية القديمة – مثلاً – أو بالبابلية يعرفون هذا الوجه من الذوق اللغوي الذي يميز التعـــبير القـــديم، حيث يكثر في الجملة ردّ المتأخّر على شيء سبق الـــنطق بـــه، وهـــو يتعلّق به تعلّقا فكريا؛ كما تكثر صيغ التردّد والاحـــتمال بدرجاتـــه، وأدوات الفصـــل والوصل، وأنواع من الـــزوائد تـــتجاوب مع حركات عقلية جزئية، تختلج في الفكر في لحظـــة التعبير، على حين أنّ المتكلّم باللغات الحية المعروفة، يكاد يفرغ من تكوين فكرته داخلية قبل سبكها في قالب الكلام، فيقلّ فيها ما يشعر بهذا الجهد الداخلي في بناء الفكرة نفسها .

ولا؛ لأنّ أصـــحاب لغـــة ما قد يشقون طريقهم نحو التطوّر والحضـــارة في ظلّ كتاب مقدّس، يحتم عليهم الإبقاء على الطابع العام المميّز للغة وهو الإعراب، فاللغة اللاتينية بقيت قروناً طويلة بعـــد الرومان بفضل المسيحية الكاثوليكية، التي كرّستها لغة دين وعبادة، وكذلك اللغة العربية بكتابها المبين: القرآن، فرضت على العـــرب الحفاظ عليها كما هي، حتى أنّهم رضوا بازدواجية حتمية بين لغتهم المقدّسة وبين اللهجات... (اللسان والإنسان١١٢).

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(٢)
التطوّر في الطبقة الصرفية

وهـــو الـــتطوّر الذي يصيب اللغة من جهة أوزان الكلمات وهيـــئاتها، وهذا النحو من التطوّر يكون بطيئاً جدّاً، ولكنّه أكثر حـــركة ممّا يصيب الطبقة النحوية، ومن الواضح أنّ التصرّف في الطـــبقة الصـــرفية يعدّ تصرّفاً في كلم مفردة، بينما التصرف في الطـــبقة النحوية يشكل اهتزازاً في ذات الجملة وسياقها، والأوّل منها أخفّ مؤنة على السنن التاريخية من الثاني.

وبما أنّ قواعد التصريف هي الآلة الأولى البسيطة والمرنة لتنمية الـــثروة الـــلفظية في اللغة، لذلك تكثر الأوزان تجاوبا مع حاجة الإنســـان، ولكـــنّها لا تظهر جميعها طفرة واحدة، وإنّما يظهر بعضـــها في أثر بعض بحسب الحاجة، كما تختفي بعضها عندما يتناساها المتكلّمون.

وبقراءة تاريخية للتطوّرات الصرفية نرى أنّ الصيغ اللغوية لا

تسير دائما في خط التعقيد أو في خطّ التبسيط، وإنّما يخضع ذلك لظـــروف حاجات المتكلّمين، ومن هنا نقسّم التطورّ الصرفي إلى قسمين، بحسب طبيعة الميل إلى الأبسط أو إلى الأعقد :

أ ـ الـــتطوّر الصـــرفي بالتعقيد : وهنا نذكر أنّ من الحقائق المعـــروفة في عـــلم اللغات، أنّ صيغة فعل الأمر هي أوّل صيغ الأفعال ظهورا إلى عالم الكلام، وأنّ صيغة المصدر من أواخرها، على عكس ما يزعمه النحاة والصرفيون، من أنّ المصدر هو أصل الاشـــتقاق، فيكون أسبق وجودا، ومن الأدلّة على ما نذكره أنّه ليس هناك صيغة فعلية أبسط وأقرب إلى حاجة الإنسان البدائي مـــن قوله اذهب أو ارجع أو اشرب. . . الخ، فهو قبل أن يشعر بالحاجة إلى الإخبار عن شيء كان قد حدث، أو احتمال شيء سيحدث، أو تصوّر الحدث المطلق المجرّد من متعلّقاته الزمانية أو الذواتية كالفاعل والمفعول، كان يطلب شيئا أو يأمر بشيء.

مضافا إلى أنّ السمات الصرفية الأولى للمادّة الفعلية الأصلية أكـــثر وضوحا في صيغ الأمر في أكثر اللغات، وهذا واضح جدّا في اللغة الفارسية، حيث يتّفق فعل الأمر مع ما يسمّيه نحاة اللغة الفارســـية بالمادة الأصلية في كلّ الحالات تقريباً، فالمادّة الأصلية لفعل الرؤية (بِيْن) وفعل الأمر يكون بزيادة باء الزينة (بِبِيْن) بينما

الفعل الماضي له هو (ديْد).

وما من شكّ أنّ اسم الفاعل واسم المفعول كان أقدم ظهوراً من اسم الآلة ـ مثلاً ـ؛ لأنّه يتطلّب نحوا من الوعي الذي يظهر في الفترات المتطوّرة من تاريخ اللغات، ولذا نرى كثيرا من اللغات تسمّي أكثر الآلات بأسماء ليست اشتقاقية، كما أنّهما أقدم من أسماء المبالغة؛ لأنّ الدلالة فيها أعقد من دلالتهما، والحاجة إليها تكون متأخّرة بالطبع عن الحاجة إليهما، وهذا ما يتّفق معه علماء الصرف والنحو.

ومن هنا لا يتوجّه ما يذكره علماء الأصول من أنّ وضع الهيئات كان بوضع نوعي ـ ويقصد بالوضع النوعي ما تلحظ فيه الهيئة الخاصّة على نحو المشير لنوع هذه الهيئة، كأن يلحظ الواضع هيئة كلمة **فاعل** ليضعها لنوع هذه الهيئة المستعمل في تمام التطبيقات ـ وذلك لأنّ الوضع اللغوي الأوّلي والبدائي لدى الإنسان الأوّل لم يكن قائما على التفكيك الواعي بين المادّة والهيئة، وإنّما هي لحاظات تحليلية نشأت من الدقّة العقلية التي تسلّطت على الظاهرة اللغوية، وقد التفت لذلك **السيد السستاني** ـ حفظه الله ـ حيث ورد في كتاب (الرافد في علم الاصول) ما نصّه: **إنّ الوضع النوعي أمر انتزعه العلماء بعد تحقّق الظاهرة**

اللغوية لا أنّه قانون اخترعه أهل اللغة.. والمجتمعات البدائية كانت تقـــوم بالوضـــع من وحي الحاجات الشخصية، ومن الواضح أنّ الوضـــع الذي يلبّي هذه الحاجات هو الوضع الشخصي للمشتقّ بمادّتـــه وهيئـــته معـــا لمعنىً، كالوضع في الجوامد أيضا، بلا حاجة للوضع النوعي للهيئة المجرّدة. (الرافد في علم الاصول ٢٧٣).

ويمكـــن استكشاف القاعدة للتطوّر بالتعقيد؛ وهي أنّ التطوّر الـــذي ينشأ من زيادات مضمونية يميل إلى التعقيد على المستوى اللفظي والمعنوي، أمّا على المستوى اللفظي فلأنّه غالباً ما يتمثّل في زوائد لفظية، فقد تكون الزيادة في الأوّل كأحرف المضارعة، أو تكون الزيادة في الوسط مثل التضعيف أو زيادة أفعال المطاوعة كـــــ(احترق)، أو تكون الزيادة في الآخر مثل حرف النسب، وكـــلّ هذه الزوائد لم تظهر إلابعد فترة متطوّرة من تاريخ نفس اللغة والجهاز الذي تعيش في داخله.

ومن هنا فقد نقول إنّ أدوات التعريف لم تظهر في اللغات إلا بعـــد أن وقـــف الإنسان إزاء الشيء المعروف والشيء المجهول موقفا عقليا واضحا محدّدا، وهو موقف فلسفي يحتاج إلى تطوّر فكري وحضاري طويل، وإلى تكامل ثقافي إبستمولوجي.

ومن هنا بقيت أداة التعريف غير معروفة في كثير من اللغات

كالبابـــلية واللاتينية، وظهرت الاستعانة على تمييز المعروف من المجهـــول في عصـــور متأخّرة بأسماء الإشارة، أو بأجزاء مقتطعة منها، أو أحيانا بتحديد النكرة دون المعروفة كما في الفارسية، حيث توضع (ياء) في آخر الكلمة المفردة للدلالة على تنكيرها، فكلمة (مَـــرْد) ـ بمعنى رجل ـ تساوق المعرفة في العربية، وعندما نريد التنصيص على تنكيرها نقول (مَرْدي). (اللسان والإنسان١١٤).

ب ـ الـــتطوّر الصرفي بالتبسيط : وهو التطوّر الذي ينشأ عـــادة من دون زيادات مضمونية، وإنما هو مجرّد تعديل وتهذيب للأوزان والصيغ الصرفية، وفي هذا الصدد يطرح الشيخ عبدالله العلايلي رأيا مثيرا، ونحن نلخّصه في ثلاثة أمور :

١ ـ الحـــركات الصرفية متطوّرة من حروف المدّ : والحامل على هذا الرأي وجود كلمات في العربية تشهد بأنّها وليدة تلك العصور الصوتية، كما في (شِيْمال) بمعنى (شِمال) بالكسر، وقد بقيت بعض آثار طريقة المدّ في بعض لهجات العرب، فقد أنشد الفراء :

الـــلّه يعـــلم أنّـــا في تلفّتـــنا
يـــوم الفـــراق إلى جيرانـــنا صـــورُ
وأنّـــي حيـــثما يـــثني الهوى بصري

ويـــترجّح قوّيا أنّ ما ورد من الفعل على وزن (افعلّ) و(افعالّ) كاخضـــرّ واخضارّ أنّ الأوّل متطوّر من الثاني بإماتة المد، ولذا كان الأوّل أكثر استعمالا من الثاني الذي بدأ يهجر بدوره لأنّه من بقايا العصور الصوتية البدائية .

وأمّـــا اسم الفاعل فقد كان سابقا على وزن (فاعيل)، وكان يقـــال (ضاريب) و(قائيم) وإن نصّ علماء العربية على أنّ وزن فاعيل ليس من أبنية العرب، كما نبّه عليه **الفيومي** حيث يقول: **وِزان فـــاعيل ليـــس من ابنية العرب، فهو بمنـــزلة هابيل وقابيل.** (المصـــباح ٢/١٠٥٥). والجماعة يعنون العربية الحاضرة، ونحن نتفق معهم، وربّما دلّ عليه كلمة (آمين) التي تمحّل لها اللغويون وجوها شتى، وكان أقواها أنّ ألفها إشباع عن الفتحة، وفي واقع الأمر أن ياءها باقية على أصلها من العهود القديمة .

والمهمّ هنا أن نذكر أنّ (فاعيل) اختصر إلى (فاعل) و(فعيل)، ثم اختصـــر إلى (فَعِل)، وخُفّف بالإسكان أيضا وصار في بعض الأحيان (فَعْل)، والعرب لا يقصدون من هذه الاختصارات تكثير البنى والصيغ، لتزداد ثروتهم اللغوية، وإنّما قصدوا إماتة المدّ الذي كان من سمات العهود البدائية .

وهذا وإن كان في اسم الفاعل ممزوجا بنوع من التكهّن، إلا أنّ الأمـــر في غـــيره اعتضـــد ببعض الشواهد، فإن (فَعُل) كان مـــنحدرا مـــن (فَعُول) الذي هو بدوره منحدراً من (فاعول)، ويشهد له أن (يَقُظ) ذكروا أنّه للمبالغة، وما ذلك إلا لأنّ أصله (يَقُوْظ) وهو من صيغ المبالغة المعروفة.

ويتّضـــح أكـــثر في (فاعال) الذي بدوره يختصر إلى (فَعَال) و(فَاعَل) ثمّ إلى (فَعَل)، وذكر الزبيدي في تاج العروس من مادّة (خ ت م) لغات في خاتم اليد وهي: (خاتام، خاتَم، خَتَم، خَتْم، خِيْـــتَام، خِـــتَام، خَاتِيَام، خاتِم)، ويتّضح لك أنّ الأصل البعيد (خاتـــام) ومـــا وراءه كـــان تخفيفا، وأمّا (خاتيام) فهي محتملة للتصحيف أو التكسّر في منطق بعض القبائل.

وعليه يمكن تفسير بعض ما ورد على وزن (يفعيل) و(يفعول) مـــن الأسماء كيقطين وهو نبات معروف، ويعقيد للعسل يعقد على النار، ويسروع اسم دويبة تكون في الرمل، ويعسوب اسم دويبة شبيهة بالجرادة، فإنّها تطوّرات من الأفعال، والذي جعلها تحتفظ بصيغتها الأولى أنّها جمدت بالنقل إلى الاسمية.

٢ ـ كـــان العـــرب القدامـــى يبـــتدئون بالساكن وينتهون بالمـــتحرّك: أمّا ابتداؤهم بالساكن فالذي يدلّ عليه ما ورد من

الأسمـــاء مـــثل (إجْفيل، إخْريط) ومن الأفعال مثل (اعْشوشب، احْترق)فإنّ الإحساس بأنّها مبدوءة بالساكن في غاية الوضوح، وإنّمـــا اضيفت الهمزة توصّلا للنطق بالساكن، وهذه الهمزة لم تكـــن حاضـــرة في النطق بهذه المثابة، وإنّما كانت أشبه بهمزة، ولكن بعد أن أثبتت في الكتابة قصد النطق بها ووضحت أكثر، ومـــن هذا القبيل الأسماء الاثنا عشر التي حفظت بهمزة الوصل كاسم وابن وامرئ..الخ، وهي كما نظنّ كانت من بقايا العصور البادئة بالسكون .

وأمّـــا بالنسبة لانتهائهم بالمتحرّك فالدليل عليه احتفاظ لفظ (عَمْـــرو) بـــالواو في إملائيّـــته، الأمر الذي جعل علماء العربية يتســـاءلون على الدوام عن سرّ هذه الواو. ولما عيَّ عليهم الأمر نقـــلوا الكـــلام إلى لهو الحديث، وانصرفوا إلى الفكاهة، فاتّهمه بعض بالاختلاس من (داود)، و لم يرق لبعض آخر هذا الاتّهام، فشـــكا ظلامته، وفاتهم أنّ الأمر أخطر من هذا، والواقع أنّ هذه الـــواو لمحـــة مهمّة عن الدور الذي تمخّض عنها، وليس في هذا الكـــلام تهمـــة؛ لأنّنا نرى أنّ عهد العرب بالكتابة قديم جدّا، ويـــرجع إلى عصور متطاولة، أي إلى العصر الذي كانت العربية يـــنطق بها محرّكة الآخر، وخصوصا إذا ذهبنا إلى أنّ الحمورابيين

عرب، ولقد كشفت الحفريات عن مدرسة حمورابية كانت تعلّم الكتابة والهجاء والحساب.

ولا ريب أيضا في أنّ اسم (عَمْرو) تسمّى به عدد عديد من ملوك العرب القدامى، وكذلك الشخصيات الكبيره، ممّا دعا إلى كتابته من أوّل العهد بالكتابة، وتطوّر الشكل اللفظي وثبتت الكتابة، وبقي عضوا أثريا في الإملاء.

وظنّ مجموعة من اللغويين والنحاة، ومنهم **أبو حيان الأندلسي** أنّ الواو دخلت للفرق بينه وبين (عُمَر)، والذي يبعّد هذا الظن أنّ الاشتباه في الأسماء في اللغة العربية أكثر من أن يحصى، وأيضا أنّ التسمية بـ(عُمَر) أحدث جدّا من التسمية بـ (عَمْرو)، وقد نصّ غير واحد على أنّ المعدول أحدث وجودا من أصله، وهذا يقضي بأن تكون الزيادة المائزة في (عُمَر) لا في (عَمْرو).

والشواهد على ظاهرة الوقف بالمتحرّك كثيرة في النصوص الحميرية كقولهم (أخت أمهو) أي (أخت أمِّه)، وفي تحريك ضمائر الجمع للغائب المضافة أو المقرونة إلى حرف الجرّ، كقولنا (لَهُ) و(كتابُهُ)، كلّ ذلك بالضمّة الممدودة مطلقاً في لسان قبائل، وفي بعض الأحيان وعند الضرورة في لسان قريش.

وظاهرة أخرى احتفظت بها العربية في بعض المواضع من

الوقف، وهي ظاهرة (الرَّوْم) ـ وهو حركة مختلسة تميل إلى الضم، ودليل على أنّ التحلّل من المتحرّك كان على وجه العموم، وذكر الآلوسي أنّ من القبائل من كان يقف بالروم مطلقا.

٣ ـ كان العرب القدامى ينطقون بالساكنين المتعاقبين الذي صار محذوراً في الأدوار الأرقى من حياة اللغة، وربّما كان شاهداً صحيحاً عليه جواز إلتقاء الساكنين على حدّه ـ باصطلاح الصرفيين ـ في العربية المرتقية في مثل (مادَّة) و(خويصَّة)، فإذا أضحت هذه الظاهرة شائعة في اللهجات الحديثة فإنّه قد بدأت في السابق طلائع عربية ترمي إلى التخلّص منها في جميع الكلمات، حتى قرئ (ولا الضائلين) بالهمزة على لغة من حدّ في التخلّص من التقاء الساكنين.

وهذه الأمور الثلاثة هي زبدة رأي **الشيخ عبدالله العلايلي**، وبعض الشواهد التي أقامها على دعاواه، وقد كان بتنظيم وتوضيح منّا لمجموعة من البحوث في كتابه (مقدّمة لدرس لغة العرب).

(٣)
التطوّر في الطبقة الصوتية

وهـــذا الـــنحو من التطوّر أسرع من سابقيه، إذ أنّنا ندرك التطوّرات الصوتية التي شهدتها بيئاتنا الخاصّة؛ وذلك لأنّ العادة قاضية بأنّ جيل السلف يؤدي اللغة بطرق صوتية تختلف ـ نوعاً مـــا ـ عن جيل الخلف، وفي الحقيقة أنّ اللغة عبارة عن عادات صوتية تقوم بأدائها عضلات شخصية، وبحكم الهيمنة الاجتماعية على سلوك الفرد يرث هذه العادات الصوتية وطرق أدائها، وقد رأينا أنّ كثيرا من التطوّرات النحوية والصرفية يزامنها تطوّرات صوتية، فلذلك يعتبر هذا النحو من التطوّر أوسع الأنحاء وأشملها من حيث الرقعة اللغوية.

ومن المقرّر في علم الفوناتيك (علم الأصوات اللغوية) أنّه لا يوجـــد اثـــنان يتطابقان في طرق أدائهما للّغة، وقد سبق لنا أن ذكرنا مصطلح **اللهجة الشخصية**، وهو منبثق من هذه الفكرة.

واعتاد علماء اللغة على تسمية التطوّرات اللغوية الصوتية اسم **القوانين الصوتية**، وهذه القوانين تعني، ببساطة، مجموعة الأُسس الـــتي تعبّر عن علاقة بين حالتين متتابعتين للغة الواحدة في وسط اجتماعي معين، ومن الناحية الصوتية بالتحديد.

وتختلف طبيعة هذه القوانين الصوتية بطبيعة نوعيّتها؛ فبعضها يكـــون عـــريقا، أي يكون التطوّر متوارثا من الأمم المتقادمة في الزمن، كالنطق بحرف الجيم، فإنّ مقارنة اللغات السامية تشير إلى أنّ النطق الأصلي لهذا الصوت، كان كالجيم القاهرية القريبة من مخـــرج الكاف، وليست معطّشة كالجيم الشامية، غير أنّ العربية الفصـــحى تحول فيها نطق هذا الصوت من الطبق إلى الغار، أي مـــن أقصى الحنك إلى أوسطه، كما تحوّل من صوت بسيط إلى صـــوت مـــزدوج، يبدأ بدال من الغار ثمّ ينتهي بشين مجهورة. (التطوّر اللغوي ٢٥).

وبعضـــها يكون التطوّر فيه حديثاً، كالتغيرّات التي تطرأ على أداء التنغيم والنبر، فإنّ طريقة تأدية الجملة الاستفهامية قد تختلف من جيلين متقاربين؛ بأن يكون الأوّل ـ مثلاً ـ يشبع التنغيم أكثر من الثاني.

وقد لاحظ العلماء أنّ التطوّر الصوتي يتّصف بخصائص أهمّها:

ـ أنّه غير شعوري .

ـ أنّه غير فردي .

ـ أنّه يسير ببطء وتدرّج .

ـ أنّه محدود بمكان معيّن .

ـ أنّه محدود بزمان معيّن .

ـ أنّه مطّرد في كلّ الحالات .

ومـــن المحدثين من عزا التغيّر الصوتي في اللغة الى سبب واحد أساس تشترك فيه جميع اللغات، ولكن أكثر المحقّقين يرجحون أنّ عدّة أسباب قد اشتركت في نشوء هذا التغيّر، ومن الصعب أن نؤكّـــد أي هذه الأسباب كان العامل الأساس في كلّ تطوّر من التطوّرات، والمهمّ هنا أن نعرض النظريات المطروحة لتبرير هذه التغيّرات الصوتية:

١ ـ النظرية العضوية

ويـــزعم أصـــحابها أنّ تغيّر الأصوات من جيل إلى آخر كان نتيجة لتطوّر عضلي، وقد زامن الاختلاف في تطوّر أعضاء النطق تطوّر في الأصوات .

و لم تَرَ هذه النظرية قبولاً أو دعماً من قبل علماء التشريح، بل

قد برهن البعض على نقيضها، وذكر أنّ حنجرة أشهر المغنّين لا تمتاز عن حنجرة الرجل العادي من هذه الناحية، والفرق الجوهري يبين المغنّي وغيره أنّ الأوّل يمتلك زمام تنفسّه، ويسيطر على ما يندفع من الرئتين من الهواء سيطرة تامّة، وكذلك الأمر بين الخطّاط وغيره في سيطرته على عضلات يده، ومصدر السيطرة على التنفّس أو على حركة الأصابع هو في آخر الأمر المخّ، فالأمر إذن ليس مرجعه إلى ناحية عضوية، وإنّما إلى النواحي العقلية والسيكيولوجية.

ومن النتائج غير المعقولة لهذه النظرية أنّ كلّ إنسان غير قادر إلا على نطق لسانه القومي؛ لأنّها الأصوات التي تلائم تطوّر أعضاء نطقه، مع أنّه ثبت بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ الإنسان قادر على نطق أي صوت من أصوات اللغة، اذا ما تدرّب عليه وتمرّن، ومن المشاهد كثيراً أنّ الطفل إذا دفع إلى مربّيات يتكلّمن ألسناً مختلفة، ينشأ متأثّراً أو مجيداً لألسن تلك المربّيات.

٢ ـ النظرية النفسية

ويعزو أصحاب هذه النظرية التطوّر الصوتي، من شدّة إلى رخاوة وبالعكس، إلى الحالة النفسية التي يكون عليها الشعب،

فالشـــعب عندما يميل إلى الدعة والاستقرار تميل أصوات لغته إلى الانتقال من الشدّة إلى الرخاوة، وإذا اعتزّ الشعب بقوّته وجبروته مال إلى العكس، وأصحاب هذا الرأي يلتمسون أدلّة على قولهم من التطوّر التاريخي الذي أصاب الشعب الألماني، وما تبع هذا من تطوّر في أصوات لغته.

ويمكـــن أن يســـتأنس لذلك بما نعرفه عن اللهجات العربية القديمـــة، وميل البيئات المتحضّرة إلى الأصوات الرخوة، في حين أنّ البيئات البدوية كانت تميل إلى الأصوات الشديدة.

غـــير أنّ هـــذا لا يكفي لتفسير كلّ هذا الكمّ من التطوّرات الصـــوتية على أنّها من إفرازات التحوّل النفسي، بل إنّ في هذه التواريخ ما يناقضها على مرّ الزمن.

٣ ـ النظرية الجغرافية

ويرى أصحاب هذه النظرية أنّ للطبيعة الجغرافية أثراً كبيراً في حـــركة الـــتطوّر التي تصيب اللغة على مرّ العصور، وعلى راس هؤلاء المنظّرين لهذه الفكرة **كوليتس** H. Collitz فقد عزا تطوّر الأصـــوات الشديدة في اللغة الألمانية إلى نظائرها الرخوة للطبيعة الجغرافية في بعض جهات ألمانيا، وقد أكّد في مقالاته أنّ الجهات

الجبلية تميل لغاتها إلى التخلّص من أمثال b.d.g فتهمس وتصبح p.t.k ثمّ تُقــلب هذه إلى نظائرها الرخوة (الفاء والثاء والخاء) على الترتيب، وقد أشار إلى أنّ البيئة الجبلية تتطلّب نشاطا كبيرا في عمــلية التــنفّس، ويتبع هذا الميل بالأصوات من الشدّة إلى الرخاوة.

وقــد تصدّى لهذه النظرية علماء آخرون وفندوها، وبيّنوا أنّ هــذا التطوّر الذي أشار إليه قد حدث مثله في بيئــات سهلية، وأنّ سببه ليس الجبال وما يتطلّب من نشاط تنفّسي كبير، ويقول **فندريس** في هذا الصدد ما نصّه:

إذا اعــتاد شــعب عــلى النطق مع فتح الحنجره، كما يفعل الجــرمانيون، تعرّضــت الانفجــارايات والمهموسة لسلسلة من التغيّرات، ناجمة عن التأخّر في وضــع الذبذبات الحنجرية في حالة الحركة، فمن جهة: لما كان تذبذب الأوتار الصوتــية لا يبدأ بعد الحبس مباشرة في مجموعة مثل (با ـ ba) أو (دا ـ da) صار جــزءٌ من الحبس مهموساً، سواء كان هذا الجزء صغيراً أو كبيراً، وأخيرا ينتهي هذا الميل بتحويل المجهور كلّه إلى مهموس. ومن جهة أخــرى: في مجموعــة مثل (تا ـ ta) أو (با ـ pa) يوجد بين انفجــار الانفجــاري وانتاج الفتحة التي تليــه وقتٌ، سواء كان

طويلاً أم قصيراً، ولكنّ الانفجار يترك للهواء حرية المرور، ومن هنا يجيء الميل الطبيعي نحو تحوّل الانفجاري إلى تنفّسي، أو حتى إلى متراخٍ، إذا كان الأنفجار على درجة شديدة من الحدّة ولم تستطع الأعضاء أن ترجع مباشرة إلى وضعها في حالة الاستراحة، رغم اندفاع الهواء المفاجئ باحثا عن سبيل للخروج، وعندئذٍ يتحوّل النطق إلى (تها ـ tha) و (بها ـ pha) او إلى (تسا ـ tsa) و (بفا ـ pfa) والمآل الطبيعي للتنفسيّة والمتراخية أن تصير إلى الاحتكاكية (فا، ثا) إذا كان دفع الهواء يجعل الانفجار غير تام . (نقلاً عن الوجيز ٢٦٠).

٤ ـ نظرية الخطأ في التقليد

وقال بهذه النظرية كلّ من **دوسلو ومييه** ، ويمكن تلخيص ما قالاه فيما يلي :

يكتسب الطفل اللغة عن طريق أبويه، وذلك بتقليده لهما في كلّ ما يسمعه منهما . وبعد أن تنتهي مرحلة التقليد ويستقر النظام الصوتي الخاصّ به، يكون من النادر جدّاً أن يماثل نظامهم نظام أبويه تماما، بل إنّ من علماء الصوت من يذهب إلى أنّ

ذلك لا يقع مطلقا.

ولكن لماذا لا تتطابق أصوات الابن مع أصوات والديه؟

يجيب فندريس عن ذلك بأنّه قد يحدث لأحد أعضاء الإبن أن يبالغ أو يقصر في أداء عمله، ولو بقدر ضئيل، أو قد يعرض لعضلةٍ شيءٍ من الإبطاء في إنتاج أحد الأصوات، أو قد يعرض لها، على العكس من ذلك، زيادة في القوّة أو السرعة، ومن ثمّ يجيء الاختلاف في النظام الصوتي بين جيلين متتابعين. هذا الاختلاف قد يضؤل، وقد لا يثير لدى السامع أي تغيير محسوس، ومع ذلك فهو خطير النتائج؛ لأنّه لا يشير إلى شيء أقلّ من انقطاع التوازن في النظام، هذا إلى أنّ الاختلاف قد يلحظ بوضوح في بعض الأحيان، وبذلك إذا كان الطفل ينطق مختلفا عن أبويه، فيحلّ سلسلة جديدة من الأصوات محلّ السلسلة التي كان يملكها أبواه.

وبعبارة مختصرة: إنّ الجيل الأوّل يخطئ في تقليد سلفه خطأً طفيفا لا يشعر به، ثمّ يأتي الجيل الثاني فيعمق خطأ الجيل الأوّل، ثمّ يفعل الثالث ما فعله الثاني، وهكذا إلى أجيال متعدّدة حتى يغدو الفرق كبيرا بين ما ينطق به السلف الأوّل وما ينطق به الجيل المتأخّر.

وعلى الرغم ممّا في هذه النظرية من جدّة وطرافة، وعلى الرغم من لهجة العلم التي تصطنعها، فإنّ فيها هنات كثيرة، وأهمّ ما يمكن أن يعترض به عليها هو أنّها تقتضي، لكي يتمّ التطوّر في اتّجاه معيّن، شيئين غير معقولين: أن يقع كلّ أفراد الجيل الأوّل في الخطأ ذاته، ثمّ أن يتابع أفراد الأجيال التالية كلّهم هذا الخطأ الأوّل، ويزيدوا فيه، وليس ذلك ممّا يجوز عقلا، إذ نلحظ في كلّ شيء أنّ الناس إذا أخطأوا تعدّدت وجوه الخطأ بتعدّدهم، فهل يعقل أن يقع أفراد جيل برمته، قد يعدون بالملايين أحياناً، في خطأ واحد ؟ ولنفرض جدلاً أنّ هذا ما يحدث بالفعل، أفلا يكون أمراً غريباً يحتاج إلى تفسير؟.

وهكذا نرى أنّ نظرية الخطأ في التقليد تخرجنا من مشكلة لتوقّعنا في أخرى، أدهى من الأولى وأمرّ، وأنّها تحلّ لغزاً بلغزٍ آخر أعقد منه وأشدّ غموضا.

٥ ـ نظرية الاقتصاد في الجهد.

تنادي هذه النظرية بأنّ الإنسان، في نطقه لأصوات لغته، يميل إلى الاقتصاد في المجهود العضلي، وتلمّس أسهل السبل، مع الوصول إلى ما يهدف إليه، من إبراز المعاني وإيصالها إلى

المتحدّثين معه، فهو لهذا يميل إلى استبدال السهل من أصوات لغته عن الصعب الشاق الذي يحتاج إلى مجهود عضلي، ومثل الإنسان في هـــذا الأمـــر مثله في معظم الظواهر الاجتماعية، يحاول عادة الوصـــول إلى غرضه من أقصر الطرق، كلّما أمكن ذلك، وليس معـــنى ذلـــك أنّ هـــذه النظرية تنطبق على تمام الحالات بقدها وقديدهـــا، وانّما المقصود أنّها ظاهرة تنطبق على حالات كثيرة مـــن الـــتطوّرات الصـــوتية، فإذا وجد الباحث ان التطور كان عكسيا، أي من الأسهل الى الصعب، فعليه ان يلتمس سببا آخر، فليس وجود مجموعة من التطورات على عكس هذا القانون يعدّ خدشـــا في صـــلاحيّته للتفســـير، ما دام لم يدع لنفسه الحتمية والاطراد.

وقد لاقت هذه النظرية بعض المعارضين الذين بنوا كلّ أدلّتهم لدحض معطياتها، وقد أوقعهم في الخبط والاشتباه أنّهم تصوّروا أنّ هذا التطوّر يستلزم المواضعة والاتّفاق، وأنّه يكون قصدياً.

والحقيقـــة أنّ أنصار هذه النظرية قد أوضحوا لنا، بما لا يدع مجالا للبس والإبهام، أنّ هذا التطوّر غير إرادي، فهو يحدث تلقائيا مـــن دون أن يشعر به المتكلّم، ودون أن يعمد إليه قصدا، فالمرء في الحقيقـــة حين ينطق بالصوت السهل بدل الصعب يخيّل إليه

دائما أنّه ينطق بالصوت الأصلي دون تغيير فيه، فالعملية إذن لا شعورية، وهي لهذا بعد تكرّرها تترك أثراً في تطوّر كثير من أصوات اللغات، كما أنّها ليست عملية ذات أثر سريع، بل تمرّ في أطوار من اللغة حتى يظهر أثرها جليّا بعد أجيال.

ومن الصعب أن نحدّد في بعض الأحيان أي الصورتين أسهل أو أصعب، ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّ الأصوات الساكنة الشبيهة بأصوات اللين، كاللام والنون مثلا، لا تحتاج إلى مجهود عضلي كالذي تحتاجه بعض الأصوات كالظاء والغين، فإذا قيل لنا إنّ السين والفاء قد قلبتا في بعض التطوّرات اللغوية هاءً، لا نشكّ لحظة أن الصوتين قد قلبا إلى صوت أسهل منهما، وقد حدث هذا التطوّر فعلا في بعض اللغات.

هذا وقد كان القدماء من مؤلّفي اللغة العربية يشيرون إلى هذه النظرية في ثنايا كتبهم، من دون أن تتّخذ أبعادها العلمية الواضحة، فقد عزوا كثيرا من التطوّرات الصوتية في اللغة العربية إلى ما أسمّوه ثقل الصوت أو خفّته، وقد نسبوا الخفّة إلى الفتحة والثقل إلى الكسرة والضمّة، كما نسبوا الثقل إلى الهمزة، والكراهية إلى توالي المتحرّكات في الكلمة الواحدة، ورتّبوا على ذلك ظواهر لغوية مشروحة في كتب النحاة.

ويؤيّد هذه النظرية ذلك التطوّر الذي حدث في بعض الأصوات الرخوة للغة العربية، كالذال والثاء والظاء، إذ أصبحت في لغة الكلام اليومي أصواتا شديدة، هي الدال والتاء والضاد؛ لأنّه قد يكون أسهل على المرء وهو يجري بأقصى سرعته أن يصطدم بحائط أمامه، من أن يحاول الوقوف قبل الحائط بمسافة قصيرة.

وقد حاول بعض العلماء الانتقاص من هذه النظرية؛ لأنّها في رأيهم تنسب إلى الإنسان الكسل، مع أنّه يزداد نشاطاً على مرّ الأيّام، والحقيقة أنّ هناك فرقا واضحا بين ما ترمي إليه النظرية وبين الكسل، فالكسل في العمل لا يؤدّي إلى النتيجة المرجوّة التي يهدف إليها الإنسان، بينما الاقتصاد في المجهود العضلي قد يؤدّي الغرض المنشود بطريق أقصر، وهذا مدعاة إلى أن يؤدّي أكبر كمية من الأعمال في أقصر وقت.

٦ ـ نظرية الشيوع

وتقرّر هذه النظرية أنّ الأصوات التي يشيع تداولها في الاستعمال، تكون عرضة للتطوّر والتبدّل أكثر من غيرها، وقد كان القدماء يحسّون بوجدانهم هذه الظاهرة، من غير أن تكون

على هيئة نظرية واضحة المعالم، فتارة يسمّونها إبدالاً، وحيناً آخر إدغاماً، هذا وقد يتعرّض الصوت الكثير الشيوع إلى السقوط من الكلام من أساس.

وقد طبّق **الدكتور إبراهيم أنيس** هذه النظرية في إحدى مقالاته ـ كما جاء في كتابه الأصوات اللغوية ـ على الأصل الاشتقاقي لما يسمّى بحروف العلّة في اللغات السامية، وقد جاء في هذا المقال ما نصّه:

وصلنا فيما قرّرناه إلى أنّ اللام والنون والميم تعدّ من الناحية الصوتية، أشباها لأصوات اللين، وإلى أنّ الواو والياء أنصافٌ لأصوات اللين، فهل كان كلّ من الواو والياء في الأصل السامي القديم أحد الأصوات الثلاثة اللام أو النون أو الميم؟

ثمّ جاء في المقال نفسه: ولتطبيق نظريتي السهولة ـ أي الاقتصاد في الجهد ـ والشيوع نجد أوّلا أنّ الواو والياء من الناحية الصوتية أسهل من اللام والميم والنون، ولكن الفرق بينهما ليس مما يحتاج إلى جهد عضلي كبير، والذي يمكن أن يكون قد برّر الانتقال من النطق باللام أو النون أو الميم إلى النطق بالواو أو الياء، ليس عنصر السهولة وحده، وإنّما يضاف إليه أثر شيوع هذه الأصوات الثلاثة في اللغة العربية، فعلينا إذن أن نبيّن نسبة

تداول كلّ من اللام والنون والميم في الكلام العربي .

ولقد حصرت عدد كلّ منها في عشرات من صفحات القرآن الكريم، الذي لا شكّ أنّه يمثّل أصدق الأساليب العربية، وقد اتّخذت هذه الصفحات لنماذج يقاس عليها، ثمّ استعنت بأهل الرياضة التي تستخدم في علم الإحصاء، وفي كثير من العلوم الحديثة؛ لتغنينا عن استقراء جميع أفراد الأصوات الساكنة في القرآن الكريم، التي تزيد على ثلاثمائة ألف من الأصوات .

والنتيجة التي وصلت إليها أنّ نسبة شيوع اللام ١٢٧مرّة في كلّ ألف من الأصوات الساكنة، والميم ١٢٤، والنون ١١٢، والهمزة ٧٢، والهاء ٥٦، والواو ٥٢، والتاء ٥٠، والياء ٤٥، والباء ٤٣، والكاف ٤١، وكلّ من الراء والفاء ٣٨، والعين ٣٧، والقاف ٢٣، وكلّ من السين والدال ٢٠، والذال ١٨، والجيم ١٦، والحاء ١٥، والخاء ١٠، والصاد ٨، والشين ٧، والضاد ٦، وكلّ من الغين والثاء ٥، وكلّ من الزاي والطاء ٤، والظاء ٣ .

فنحن نرى من النسب السابقة أنّ اللام والنون والميم تكوّن مجموعة من الأصوات الساكنة، هي أكثر شيوعا في اللغة العربية، ولا يبعد أن تكون هذه الظاهرة شائعة في كلّ اللغات السامية.

وجاء في كلامه ايضاً: نخلص من كلّ هذا الشرح إلى أنّ الطور الأوّل لظاهـــرة الإعـــلال، هو تحوّل اللام والنون والميم إلى ياء أو واو. ولســـنا نعني أنّ كلّ لام أو نون أو ميم قد تحوّلت إلى ياء أو واو، لأنّ معـــنى هـــذا أنّ اللغة يجب أنّ تكون خالية من اللامات والـــنونات والميمات، وهو ما يخالف الواقع، فهناك عوامل خاصّة، وظـــروف لغوية خاصّـــة، وجدت في بعض الكلمات دون البعض الآخـــر، وفي بعض البيئات دون البعض، ممّا أدّى إلى حدوث هذا الـــتغيّر في بعـــض الكلمات فقط، وتلك العوامل الخاصّة يمكن أن تـــلخص في كـــون الصوت منبورا، أو خالياً من النبر، وفي طول الصوت، أو قصره، وغير ذلك من عوامل نجهلها الآن؛ لبعد العهد بيننا وبين ذلك العصر الذي تمّ فيـــه هذا الانقلاب الصوتيّ .

وجاء في المقال، في مقام تعضيد هذه الدعوى: وإنّي في نظرة عجـــلى عـــثرت في القاموس المحيط على ما يقرب من مائتي كلمة تؤيّد ما أذهب إليه .

وليس من المعقول أنّ اشتراك المعنى بين كلّ هذه الكلمات كان مجرّد مصادفة، فهي من الكثرة بحيث تدع اللغوي يفكّر في سرّ هذا الاشتراك، ويحاول الكشف عنه، وسأكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة التي عثرت عليها :

١ ـ وَشَرَ الخشبة بالميشار: إذا نشرها بالمنشار .

٢ ـ الوَقْص: العيب والنقص .

٣ ـ اللكْز: الوكز .

٤ ـ وَعَكَه: دكّه، وفي التراب، مَعَكَه .

٥ ـ الضَّنَك: الضيق .

٦ ـ جَلَخَ السيل الوادي وجاخه: اقتلع أطرافه .

٧ ـ فَصَى الشيء من الشيء: فصله .

٨ ـ دجا الليل: أظلم، والدَّجن: الظلمة. انتهى كلامه .

أقول : لم يخرج جميع ما ذكره عن حدّ التكهّن، فليست هذه الشواهد المذكورة كافية للوصول إلى هذه النتيجة البعيدة، وذلك:

أوّلاً: أنّ هناك من الحروف ما تعرّض للابدال وهو من الأصوات القليلة الورود في الكلام مثل الذال والثاء والظاء والضاد، ونرى من السهل جدّا أنّ تتعرّض هذه الحروف للإبدالات .

وثانياً: لم نرَ شاهداً حيّاً يبرّر لنا هذه الظاهرة، فإذا كانت اللغة العربية حفلت بهذا الكمّ الكبير ـ بزعمه ـ من الإبدال، فلماذا توقّف هذا المدّ، فلم نرَ كلمة واحدة تغيّرت طيلة

الأربعة عشر قرناً المنصرمة، وهل هذا إلا مؤشّر على بعد ما ذكر.

وثالثاً: أنّ مثل هذا التنوّع المذكور، كشواهد على المدّعى، له نظائر في اللغة كثيرة، ولا تمسّ هذه الحروف المذكورة، فقولنا (غَابَ) و(غَرَ) و(غاص) و(غاض) كلّها تؤدّي دوراً دلاليّاً متقارباً، ولكن لم يدع أحدٌ الإبدال، كما أنّ من راجع أمثلة يرى الكثير فيها ليس واضحا كشاهد على المدّعى، فليلتفت.

والنتيجة: أنّ ما ذكر من القانون العام تعضده الشواهد اللغوية، فإنّ الصوت الذي يتعرّض للاستعمال كثيراً ما يكون أكثر عرضة للتطوّر، ولكن ما ذكر من التطبيق الأخير فما هو إلا ضرب من التفنّن البعيد عن الواقع.

(٤)
التطوّر في الطبقة المعجمية

وهو أسرع الطبقات اللغوية تطوّرا، فكلّ فرد من أفراد المجتمع يحسّ بالتطوّر في داخل قاموسه الذهني يوما بعد يوم، زيادة على أنّ الجيل اللغوي بالكامل يشعر بالمفارقة بين مفرداته ومفردات الجيل الأسبق، وهو السّر في أنّ القارئ المتوسّط الثقافة لو قرأ معلّقة طرفه بن العبد ـ مثلاً ـ فلابدّ له من مراجعة المعجم اللغوي لفكّ مفرداتها، في كلّ ثلاثة أبيات، على الأقلّ، وما ذلك إلا لأنّ الفاصل الزمني الكبير كفيل بتعويم بعض الكلمات، وتحويل البعض الآخر عن معناه.

وقبل أن ندخل في مظاهر هذا النحو من التطوّر نشير إلى أنّه قد يكون التطوّر في كمية المعجم، وذلك بأن يتزايد أو يتناقص، وقد يكون في كيفيّته، وذلك بتحوّل دلالالته من جهة إلى أخرى، وحري بالشكل الأوّل أن يسمّى **التطوّر المعجمي**،

وبالشـــكل الثاني أن يسمى **التطوّر الدلالي**، ولكنّنا سوف نطلق على الجميع اسم التطوّر المعجمي، تسهيلا للتعامل العلمي، وبعد ذلك نبيّن مظاهر هذا التطوّر المعجمي، وهي أربعة :

١ ـ **التطوّر بالتعويم**: وهو من أجلى مظاهر التطوّر المعجمي، ونقصد به اندثار المفردة من الألسن، بعد أن كانت متداولة، ولا اظـــنّ أنّنا بحاجة إلى التمثيل لوضوحه، ومن أسبابه تبدّل الحياة الاجـــتماعية، فإنّنا لسنا بحاجة الآن إلى أن نعرف أوصاف الإبل والخيـــل، وتفصـــيل أسماء النباتات الصحراوية، وأسماء الأدوات الحربية القديمة وأوصافها .

كمـــا أنّ من الأسباب التي تساهم في تعويم المفردة أن تكون مستقبحة، ويستعاض عنها بالكنايات، مثل الأسماء، التي تشير إلى الأعضاء التناسلية أو عمليّات التبوّل والتبرّز أو عمليّات الجماع، فـــإنّ الـــلفظ بمجرّد أن يشيع يمجّه الذوق العام، ويأباه الأدب الاجـــتماعي، فالكـــنيف مثلا كان بمعنى الساتر، ولذا يسمى في اللغة الترس كنيفا؛ لأنّه يستر صاحبه عن الأعداء، ولكن لما كني بـــه عـــن الساتر للحدث مجّه الذوق، وغاب عن الاستعمالات الأخرى .

ويحكـــي **ابن فارس** اللغوي أنّه **قد جرى بين يدي الوزير ابن**

العميـــد ذكر أسماء (الفَرْج) وكثرتها، فقال بعض الحاضرين: ماذا أرادت العـــرب بتكثيرها مع قبحها؟ فقال: لما رأوا الشيء قبيحاً جعـــلوا يكـــنّون عنه، وكانت الكناية عند فشوها تصير إلى حدّ الإســـم الأوّل، فينتقلون إلى كناية أخري، فإذا اتّسعت أيضا رأوا فيهـــا مـــن القبح مثلما كنّوا عنه من أجله، وعلى هذا كثرت الكـــنايات، وليـــس فرضـــهم تكثيرها. (نقلاً عن كتاب التطوّر اللغوي ٢٠٢).

٢ ـ التطوّر بالبروز: وهو عكس سابقه، والداعي الاجتماعي لاســـتعادة الكـــلمة بعد موتها على الألسن، تواجد مصاديقها، واشتهار موضوعها الخارجي بين الناس، فكلمة (مِيْناء) لا تكاد تـــراها في نـــصّ قديم، وما ذلك إلا لأنّ غالبية العرب يسكنون الصـــحاري، فلم تشتهر إلا عند الساكنين جوار الشواطئ، أو لأنّهـــم اكتفوا بمثل كلمة (مرسى)، وكذلك كلمة (فَنّان) بمعنى كـــثير التفنّن في الأمور، فهو مُفنٍّ وفنّان، والذي أدّى إلى بروز الكـــلمة الأولى اعتـــبار الميناء في هذه العصور جزءً من الحركة الاقتصادية لكثير من الدول، وتسويق الإعلام لكلّ ما يحدث في الموانى من فعاليات إنسانية، وكذلك الاحتفاء بالفنّ وأصحابه في العصور المتأخّرة أدّى لبروز الكلمة الثانية، واشتهارها على جميع

الألسن العربية .

٣ ـ **التطوّر بالتوليد**: وهو لجوء أصحاب اللسان إلى أنماط من صناعة المفردة، وإلى طرق يمكنها أن تسدّ الحاجة المفترضة في كلّ عصر، ودائما يكون التطوّر الفكري والاجتماعي يزامنه تطوّر لغوي مفرداتي، فكلّما تقدّمت الحياة وبرزت أشكال حياتية جديدة، انفتحت آفاق الحاجة إلى مفردات جديدة .

وطرق صناعة المفردات يمكن إرجاعها إلى بضعة أنواع، وهذه أهمّها :

أ ـ **التركيب**: وهو دمج كلمتين أو أكثر؛ لتكون كلمة واحدة، يختلف معناها عن كلا الكلمتين، مثل (حَضْرَمَوْت) فإنّها تركّبت من (حَضَرَ) و(مَوْتٌ) ولكنّها أصبحت علماً وإسماً لا علاقة له بأي من الكلمتين، واللغة العربية لا تلجأ للتركيب إلا في حالات نادرة، كما هو الشأن في اللغات السامية، في حين أنّ اللغة الفارسية، وهي من شعبة اللغات الهندية الأوروبية، تجعل التركيب الركيزة الأولى لتوليد المفردات.

وما يمكن أن يكون مورداً يطرد فيه التركيب عند أهل العربية، هو مورد النسبة للأسماء الطويلة، كعبد شمس وأمرئ

القيس، فإنّه يقال: (عبشمي) و(مرقسي)، ومن هذا النحو ما نراه في الكتابات الحديثة، إذ يقال (قُرْوَسَطي) نسبةً الى القرون الوسطى، وكذلك إذا كانت النسبة إلى أمرين متداخلين بطبعهما، فبدلاً من النسبة لكلّ كلمة على حدة ينسب للكلمتين معاً على نحو التركيب، كقولنا (الزمكاني) أي الزماني المكاني، وقولنا (السوسيولغوية) و(السيكيولغوية) أي السوسيولوجية اللغوية، والسيكيولوجية اللغوية.

ب ـ **النحت**: وهو أشبه بالتركيب، إلا أنّه يشتقّ من تعابير طويلة، ولا يظهر أثر للكلمات الأُولى، مثل (بسملة) منحوتاً من (بسم اللّه الرحمن الرحيم)، و(طلبقة) منحوتاً من أطال اللّه بقائه، وهذه الوسيلة ـ أيضاً ـ لم تكن مشهورة في اللغة العربية، ولكنّها صارت هي الوسيلة المفضّلة اليوم لصنع الكلمات التي تحتاج إليها الحضارة، خصوصاً في مجال المؤسّسات والشركات العالمية، والمخترعات الكيميائية، مثل الرادار واليونسكو، فإنّهما اختصاران للتعبير الأجنبي الطويل.

ج ـ **الاختراع**: وهو أن يلجأ قومٌ إلى تسمية أمر جديد باسم جديد، أو صاحب صنعة إلى تسمية صنعته، ومن ذلك اختراع اسم (الغاز ـ goz) وليس هناك أي شرط في اختراع الكلمة

إلا المقبولية لدى المجتمع الذي ستعيش فيه اللفظة، ومقبوليّتها رهينة بأن يكون التركيب اللفظي منسجماً مع طبيعة جهاز اللغة الذي يخترع اللفظ في داخله، من ناحية توزيع الحركات والأصوات.

د ـ الاقتراض: وهو استعارة لفظ من مجتمع لغوي إلى مجتمع لغوي آخر، وظاهرة الاقتراض ظاهرة عامّة تنشأ من تداخل المجتمعات من جهة، أو قصور في اللغة المقترضة، أو اشتهار اللفظ والمعنى داخل مجتمع معيّن.

وشهدت اللغة العربية الاقتراض منذ عهودها الأولى، وقد استعمل القرآن الكريم بعض الألفاظ غير العربية في الأصل، مثل (القسطاط) و(الاستبرق)، وقد تسلّل إلى اللغة العربية كثير من الألفاظ؛ بسبب التداخل الاجتماعي مع الآخرين، وسعة رقعة الذين يتكلّمون بها، ونؤكّد على أنّ الاقتراض ظاهرة لغوية طبيعية، ولا تعكس القصور اللغوي لدى اللغة المقترضة، إلا في حالات قليله، فإنّ كلمة (اسطرلاب) أو (إيساغوجي)، من الألفاظ العلمية التي بطبيعة الحال أن تنتقل مع مفهومها العلمي إلى أي مجتمع، وهو الأمر نفسه إلى جعلنا نستخدم كلمة (الميكروسكوب) أو (التلسكوب) أو(الكمبيوتر)، ويفضل الكثير

استعمال اللفظ الأجنبي المعرّب على اللفظ العربي في مثل هذه الأمور، كما لا يفوتنا أن نؤكّد أنّ الاقتراض قد يدخل اللغة من دون أن تتغيّر المفردة المقترضة عن أصلها، وقد يغيّرها أهل اللسان الجديد بما يناسب ذوقهم اللغوي والصوتي، هذا القسم الثاني هو المشتهر لدى العرب، ولذلك اصطلح عليه اسم (التعريب).

وتدلّ الشواهد اللغوية على أنّ العرب كانوا يقترضون الكلمات لا بسبب الفقر، وإنّما لزيادة التلطّف والتأنّق في الصوت. فإنّهم عربوا (الباذنجان) وله في العربية عشرة أسماء هي (المغد، الوغد، الكهكب، الكهكم، الحيصل، الحَدَق، اللفّاح، الشرجيان، الأنفحة)، وعرّبوا (اللوبياء) وله في العربية أربعة أسماء هي (الدَّجْر، اللياء، الحُنْبُل، الأحبل)، ومع كلّ هذه الثروة فقد آثروها على التلطّف والتأنق في التلفّظ.

هـ ـ **الاشتقاق**: وهي الطينة المرنة التي من خلالها تتّسع اللغة، لاحتواء كلّ المستجدّات ومتطلّبات العصور، والحاجات التي تعترض اللغة، أيّ لغة، والاشتقاق هو الذي مكّننا من تسمية (السيارة) و(الطيّارة) و(الحاسوب) وغيرها من مئات الألفاظ المستجدّة، والتي سمّيت بفضل القدرة الاشتقاقية المكتنزة داخل

اللغة العربية .

٤ ـ **التطوّر بالتبدّل**: وهو المشهور باسم التطوّر الدلالي، والمقصود منه تغيّر دلالة اللفظ عن معناه الأصلي بمرور الزمن، وهو الذي يدرس في علم (الايتيمولوجيا)، وترجع أكثر التبدّلات التي تصيب الدلالة إلى ثلاثة أنواع :

ـ التخصيص .

ـ التعميم .

ـ الانتقال .

فأمّا التخصيص فهو الانتقال بالكلمة من معنىً عام واسع إلى معنىً أخصّ منه وأضيق، وذلك كالتخصيص الذي حدث للكلمات التي جعل الشارع لها حقائق شرعية، كالصلاة والصوم والحج والوضوء والزكاة وغيرها، إذ كانت الصلاة تعني كلّ صلة بين اثنين، ثمّ خصّصت بالصلة بين العبد وربّه بحركات مخصوصة، وكذا الصوم الذي يعني في البداية الانقطاع عن كلّ شيء، ثمّ خصّ بالانقطاع عن الطعام والشراب والنكاح وبعض الأشياء في أوقات مخصوصة، ومثل ذلك الحج، فقد كان يعني القصد عامّة إلى أي مكان، ثمّ خصّص بزيارة مناسك مخصوصة في أوقات مخصوصة، وأمّا الزكاة فقد كانت تعني النماء عامّة ثمّ

أصبحت لا تعني إلا ضريبة معلومة بشروط خاصّة، وسميت الزكاة بهذا الاسم؛ لأنّ الشارع يعتبر إخراج الضريبة من المال نمواً من النموّ الأخروي، أو أنّه يورث النموّ حتى في الدنيا.

وأمّا التعميم فهو انتقال بالكلمة من معنىً ضيّق إلى معنىً أوسع منه، وذلك كالتعميم الذي حدث لكلمة (نَتَج)، إذ المعروف أنّ هذه الكلمة لم تكن تعني سوى إلقاح الرجل لناقته لتلد له فصيلا، ثمّ استعملت بصيغة (أَنْتَج) لكلّ إحداث شيء، سواء كان المحدث من نوع الإبل أم كان من غيره.

وأمّا الانتقال فهو تحوّل الكلمة من معنىً إلى آخر يختلف عنه كلّ الاختلاف، فلا هو أضيق منه ولا أوسع، وإنّما هو مباين، وذلك مثل كلمة (الريشة) التي كانت تطلق على آلة الكتابة، أيّام كانت تتّخذ من ريش الطيور، ولكنّها الآن تعني طرف القلم المعدني، من دون لحاظ أصلها الأوّل، وعند العرب (الوغى) صارت بمعنى (الحرب) وهي في الأصل لاختلاط الأصوات في الحرب، وأبناء اللهجة يسمّون الشارب بـ(الشنب)، وهو في الأصل لماء الثغر، ويسمّون اللحية (ذقنا)، والذقن هو مجتمع عظام الحيين من الفك، ويطلقون (الصدر) على ثديي المرأة تأدّباً، ويطلق لفظ (الجَيْب) عند الناس على ما يوضع فيه النقود من

الـــثوب، ولكن الأصل العربي أنّه لما يدخل منه الرأس عند لُبسه.

(يراجع الوجيز في فقه اللغة ٤٥٣، والتطوّر اللغوي ١٨٩).

مـوت اللغـة

نعـني بمـوت اللغة اندثارها من ألسنة أهلها، بحيث لم يعد يـتحدّث بها أحد، و لم يعدّ فهمها لأحد أمرا ميسورا من دون تعلّم،وكم شهد التاريخ من لغات قد اندثرت وفنيت، و لم نكن نعـلم بوجودهـا إلا من جهة البقايا الأثرية التي عثر عليها في أوسـاط الصحارى، أو المناطق الأثرية المطمورة، أو على القبور البالية، وقد نتوصّل إلى اللغة الميّتة من خلال مقارنات علمية بين مجموعة من اللغات الحيّة .

وتصنّف اللغات الميتة إلى قسمين :

١ ـ لغات لم تدرك عصر الكتابة، وإنّما انطفأت في العصور المظلمة، فأصبحت لا تعرف إلا افتراضا علميا، وعن طريق علم الـلغة المقـارن، وأشهر مثال لهذا القسم اللغة السامية الأم، التي عاشـت ومـاتت قـبل اختراع الكتابة، فلم يصلنا شيء من نصوصها.

٢ ـ لغات أدركت عصر الكتابة، ثمّ ماتت، ووصلتنا نصوص مكتوبة ونقوش أثرية لها، ومن أمثلتها المصرية الفرعونية، والبابلية الآشورية، والسنسكريتية، واللاتينية.

وفي واقع الأمر أنّ كلّ لغة حيّة الآن، إنّما هي وليدة لغة ميتة سابقة عليها، معروفة أو غير معروفة، وكانت حين حياة الأم التي انجبتها لا تعدو أن تكون لهجة من لهجاتها، كالفرنسية والإيطالية والاسبانية والبرتغالية، بالنسبة للاتينيّة، وكالعربية والبابلية والآشورية والسريانية والعبرية، بالنسبة للسامية، مع ملاحظة أنّ بعض هذا اللغات كان حيّاً، ثمّ أصبح بدوره في عداد اللغات الميتة، كالبابلية والآشورية والسريانية.

وإذا قلنا سابقا أنّ اللغة كائن حيّ، تتطوّر حياته وفقا لقوانين طبيعته، يمكن اكتشافها بالدرس التحليلي، فإنّنا نبني على أصل الفكرة، ونقول أيضا إنّ اللغة قد يطول عمرها أو يقصر، ثمّ تموت خضوعا للقوانين الطبيعية للكائن الحي، وما ذاك إلا لأنّ اللغة تشهد صراعا دائما، داخليا وخارجيا يهدّد حياتها، فإذا كان كذلك فهل لنا أن نفهم أنّ لكل لغة طفولة، ثمّ سنّاً معيّنة تصل فيه إلى أوج الصحّة والجمال، ثمّ تصيبها أمراض الكبر والشيخوخة إلى أن تموت؟ لدينا ثلاث إجابات:

ـ علماء الأدب: يجيبون بنعم.

ـ فقهاء اللغة: يجيبون بلا.

ـ علماء الاجتماع: يجيبون ربّما.

ولكي نتعرّف على الجواب الصحيح، لابدّ من استعراض الأسباب التي تؤدّي إلى موت اللغة، فإن كانت ضرورية التواجد في كلّ لغة كان موتها إذن حتميا، وإلا فلا، والأسباب هي:

أ ـ **هرم اللغة وشيخوختها**: وهو المؤدّي إلى الموت الطبيعي، وشرط تواجد هذا السبب أنّ يكثر أصحاب هذه اللغة، ويتّسعوا بالمستوى الذي يجعل حضاراتهم متباينة، ولهم لهجات متباعدة، ومع مرور الأجيال تندثر اللغة الأم من ذاكرة الأبناء وعلى ألسنتهم، ثمّ تموت، والمثال على ما تعرض لهذا السبب المميت، السامية والسنسكريتية والفارسية القديمة واللاتينية.

ب ـ **قتل اللغة**: وهو سبب سياسي، ينشأ من الغزو المسلّح على أصحاب اللغة المقتولة، وقد شهد التاريخ أمثلة كثيرة لهذا النوع من الموت، ولكن ينبغي أن نفرّق بين حالات الغزو التي بدورها تنوّع النتيجة، والحالات هي:

ـ أن يكون الغزاة أكثر عددا بأضعاف كثيرة من أهل تلك اللغة، بحيث يصبح استقرارهم بلغتهم في الأرض المفتوحة أشبه

بطوفـــان يبتلع الشعب ولغته معه، وفي مثل هذا الظرف يتحتّم موت اللغة، والمثال عليه اكتساح الساميين للعراق الذي يسكنه الشومريون، فقد أدّى هذا الاكتساح إلى تلاشي لغة الشومريين وفـــنائها، وإن تركت آثارها بشكل أو آخر على لغة الساميين الفاتحين.

ـ أن يكون الغزاة مساوين للسكّان الأصليين تقريبا، فهنا إن كـــان الغزاة أصحاب حضارة راقية، بحيث تهيمن على حضارة الســـكّان الأصـــليين، فمن الطبيعي اندثار لغتهم تبعاً لحضارتهم البائدة، وإذا كان الغزاة أدنى حضارةً فمن المتوقّع جدّاً أن تندثر لغـــتهم، ويـــتّخذون لغة السكّان الأصليين، لساناً جديداً، كما حـــدث مع القبائل المتبربرة التي هاجمت شعوب أوروبا اللاتينية، حيـــث تركت الأُولى لغاتها، وتعلّموا اللاتينية؛ لأنّها أكثر تقدّماً من لغاتهم البربرية.

ـ أن يكـــون الغـــزاة أقلّ عدداً، فهنا قد يؤثرون بلغتهم، إذا كـــانت حضارتهم من القوّة صالحة لأن تفرض نفسها رغم قلّة العـــدد، وإلا فـــإن لغة الغازين هي المهدّدة بالموت، كما حدث للأكديين الذين غلبوا الشومريين في العراق حوالي (٣٥٠٠ قبل الميلاد)، واتّخذ الغالب لسان المغلوب، ومن الطريف أنّ القواعد

الـــتي وضعها الاكديون لتسهيل اللغة الشومرية دوّنت، فوصلتنا شـــذرات مـــنها هـــي أقدم النصوص النحوية التي وصلتنا في الدراســـات الـــلغوية في العـــالم، ومن الأمثلة أيضا التتار الذين أســـقطوا بغداد، فتعلّم أكثرهم اللغة العربية، كما اعتنق الإسلام عدد كبير منهم.

ج ـ **تســـمّم الـــلغه**: ونقصـــد بذلك أن يتسرّب رشح من الدخيـــل من لغات أخرى، تحتاج إليه اللغة فتتقبله، بل تحسّ مع تعاطيهـــا لـــه في البداية بمزيد من من الانتعاش والقوّة والنشاط، يشجّعها على تقبّل جرعات أكبر فأكبر من هذا الدخيل، ولكن قدرتها على هضم ذلك كلّه، واستيعابه في بنيتها العامّة تخونها في النهاية، فتسقط من الإعياء، تاركة المجال للبقية الباقية من الدخيل تتسرّب إليها بدون أيّة مقاومة، حتى تجهز عليها وتميتها، وهكذا ماتت اللغة السريانية في بلاد الشام، فإنّ الفاتحين العرب تصالحوا مع المسيحيين في هذه الأقطار، قانعين منهم بالولاء والمسالمة ودفع الجزية، أما دينهم فقد تركوا لهم مطلق الحريّة فيه، واتّخذوا منهم المترجمين والأطباء والمهندسين وأساتذة الصناعة وكبار الموظّفين، ولكن سيل الدخيل العربي المتزايد استمرّ في التسرّب إلى ألسنتهم، حـــتى وجدوا أنفسهم يوما ما وقد فقدوا لغتهم نهائيا، وتكلّموا

العربية، وأصبحوا من بعدُ أشدّ غيره عليها من كثير من المسلمين.

ومن اللغات التي عانت مضاعفات التسمّم اللغة الفارسية، إذ كـــان الفتح العربي قد أدخل اللغة العربية إلى بلاد فارس، حتى أصبح العلم والأدب والسياسة جميعاً لا تعرف تعبيراً غير العربية، وتقـــلّص ظـــلّ الفارســـية، فأصبحت رطانة الطبقة الدنيا من الفلاحين والرعاة وصغار التجّار والصنّاع، ولكن الحس القومي اســـتيقظ من القرن الثالث الهجري، وبدأت حركة إحياء وبعث لـــلغـــة الفارسية، وهكذا بدأ مفكّرون من الفرس يهجرون لغة العـــرب؛ ليعـــودوا إلى لغـــتهم قبل الإسلام، من أمثال **رَوْدَكي وفردوســـي وسعدي وجلال الدين الرومي وعمر الخيام** وغيرهم، ومـــع ذلك فهذه اللغة الفارسية تحتوي على أكثر من خمسين في المائة من الدخيل العربي، في صلب ثروتها اللغوية، وهي نسبة لولا الحسّ القومي الذي تشرّب به أصحابها، لكانت قريبة من درجة الإشباع المؤدّية إلى التسمّم.

ومـــن المفيـــد ما عني به اللغويون الغربيون بتقدير الجرعات القاتلة للغة من الدخيل الأجنبي، فوجدوا أنّ الأسماء أقلّها خطراً، وتستطيع اللغة أن تهضم منها قدراً كبيراً جدّاً، من غير أن تفقد مناعـــتها، وأمّا الأفعال فإنّ أقلّ من ربع نسبة الأسماء يكفي لقتل

الـــلغة، لأنّ الأفعال تتوالد ذاتياً بالاشتقاق والتصرّف، فهي إذن تـــتكاثر ولا تقـــف عند حدّها، ولا تبقى محايدة كالاسم، وأمّا الحرف فأشدّها خطرا؛ لأنّه أهم ضوابط الفكر قبل مرحلة التعبير والكلام. (اعتمدنا بالدرجة الأولى في هذا الموضوع على كتاب اللسان والإنسان ١٢٦ ــ ١١٨).

والحمدُ للّه ربّ العالمين

١٤٢١/١/١٩ هـــ

قائمة المصادر

- القرآن الكريم: كتاب الله المقدس.
- المعجم المفصّل في علم اللغة (الألسنيات): محمد التنوخي وراجي الأسمر ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤١٤هـ.
- المصباح المنير: الفيومي ــ مكتبة لبنان ــ بيروت.
- الموسوعة الفلسفية: عبد المنعم الحفني ــ دار ابن زيدون ــ بيروت ــ الاولى.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة وكامل المهندس ــ مكتبة لبنان ١٩٨٤م.
- دائرة معارف القرن العشرين ــ فريد وجدي ــ دار المعرفة ــ بيروت ــ الطبعة الثالثة.
- العلم المرح: نيتشه ــ ترجمة حسان بو رقية ومحمد الناجي ــ افريقيا الشرق ــ بيروت ــ ١٩٩٣ م.
- الخصائص: ابن جني ــ تحقيق محمد النجار ــ دار الهدى ــ بيروت ــ الطبعة الثانية.
- المزهر في علوم اللغة وانواعها: جلال الدين السيوطي ــ المكتبة الازهرية ــ القاهرة ــ محمد سعيد الرافعي ــ ١٣٢٥ هـ .

- سر الفصاحة: ابو محمد الخفاجي الحلبي.
- مقدمة لدرس لغة العرب: الشيخ عبد الله العلايلي ـ دار الجديد ـ بيروت ـ الطبعة الثانية.
- اللغة الثانية: فاضل ثامر ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ بيروت ـ الطبعة الاولى.
- فقه اللغة: قاصد الزيدي ـ دار الكندي للنشر والتوزيع.
- فقه اللغة في الكتب العربية: عبده الراجحي ـ دار النهضة العربية ـ بيروت.
- سلامة اللغة العربية: عبد العزيز عبد الله محمد ـ منشورات مكتبة المنتدى العربي ـ الطبعة الاولى.
- اللهجات العربية في القراءات القرآنية: عبده الراجحي.
- اللسان والانسان: الدكتور حسن ظاظا ـ دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٩٠م.
- سوسيولوجيا اللغة: بيير اشار ـ ترجمة عبد الوهاب تزو ـ منشورات عويدات - بيروت ١٩٩٥م.
- المنطق: الشيخ محمد رضا المظفر ـ انتشارات سيد الشهداء (ع) ـ قم ـ الطبعة الاولى ١٩٩٣م.
- الرافد في علم الاصول: السيد منير القطيفي ـ مطبعة ستاره ـ قم ـ الطبعة الاولى.
- الوجيز في فقه اللغة: محمد الانطاكي ـ المطبعة الحديثة ـ حلب ١٣٨٩هـ.
- دراسات في فقه اللغة: صبحي الصالح ـ منشورات ادب الحوزة ـ قم ـ الطبعة التاسعة.

- نظرية البنائية في النقد العربي: صلاح فضل ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٧م.
- موجز في تاريخ العلوم والمعرف في الحضارات القديمة والحضارة العربية القديمة: طه باقر ـ جامعة بغداد ـ ١٩٨٠م.
- الشكل والخطاب مدخل لتحليل ظاهراتي: محمد الماكري ـ المركز الثقافي العربي ـ بيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٩١م.
- دينامية النص تنظير وانجاز: محمد مفتاح ـ المركز الثقافي العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٩٠م.
- الشفاهية والكتابية: والترج. اونج ـ ترجمة محمد عصفور ـ ضمن سلسلة عالم المعرفة الكويتية ـ (١٨٢).
- بلاغة الخطاب وعلم النص: صلاح فضل ـ سلسلة عالم المعرفة ـ العدد ١٦٤.
- عالم الفكر: تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت.
- مجلة الحرس الوطني: تصدر عن رئاسة الحرس الوطني في السعودية.
- مجلة البحرين الثقافية: تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب ـ البحرين.

علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

المحتويات

بمثابة مقدمة ٥

اللغة في ركام الماهيم ٧

مفهوم اللغة في التراث العربي ٧

مفهوم اللغة في الدرس الحديث ١٠

اللغة في ركام المصاديق ١٥

نظرية المنطق الأرسطي ١٥

نقد النظرية الأرسطية ١٧

نظرية بيرس ١٨

نقد نظرية بيرس ١٩

ولادة اللغة ٢٣

ملاحظات منهجية عامّة ٢٣

مناهج الاكتشاف ٢٧

مقاربة نهائية ٣٥

نحو نظرية قرآنية في نشأة اللغة ٣٦

نقد النظرية ٣٩

طفولة اللغة ٤١
تاريخ ٤١
نظام اللغة الأصلية ٤٢
نقد نظرية شليغل ٤٤
عوائل اللغة ٤٧
الأولى: التقسيم على الأساس الاثنولوجي ٥٠
نقد نظرية التقسيم الانثولوجي ٥١
الثانية: التقسيم على الأساس التكنولوجي ٥٤
نقد نظرية التقسيم التكنولوجي ٥٦
الثالثة: التقسيم على اساس صلة القرابة ٥٧
اللغات السامية.. مقاربة زمنية ٦٥
١ ــ الاكديون ٦٥
٢ ــ الكنعانيون ٦٦
٣ ــ العبريون ٦٧
٤ ــ الآراميون ٦٩
٥ ــ الجعزيون ٦٩
٦ ــ الامحاريون ٧٠
٧ ــ العرب ٧١
من اللغة إلى اللغوة (اللهجة) ٧٧
حدود اللهجة ٧٧
اللهجة في ركام المفاهيم ٧٩
كيف تتكوّن اللهجات ٨٢
الدعوة الى العامية ٨٥

الدعوة الى دراسة اللهجة ٩٥
من الزمنية الشفاهية الى الزمنية الكتابية ١٠١
أدوار الكتابة ١٠٣
آفاق جديدة في الكتابة ١١٣
١ ــ الغراماطولوجيا ١١٣
٢ ــ الغرافولوجيا ١١٦
٣ ــ فضاء الكتابة ١٢٣
٤ ــ علامات الترقيم ١٢٨
تطوّر اللغة ١٣٧
التطوّر في الطبقة النحوية ١٣٩
التطوّر في الطبقة الصرفية ١٤٧
التطوّر في الطبقة الصوتية ١٥٧
التطوّر في الطبقة المعجمية ١٧٤
موت اللغة ١٨٤
أ ــ هرم اللغة وشيخوختها ١٨٦
ب ــ قتل اللغة ١٨٦
ج ــ تسمّم اللغة ١٨٨
قائمة المصادر ١٩١
المحتويات ١٩٥